سلسلة الفكر الماركسي - 6 -

عرض موجز للماركسية

كانون الأول 2003

هكذا كان ماركس رجل علم. الا ان ذلك لم يكن يمثل ولو نصف هذا الرجل. لقد كان العلم بالنسبة لماركس حركية-دينامية- تاريخية و قوة ثورية. و مهما كان سروره عظيما باي اكتشاف جديد في العلوم النظرية و لئن كانت تطبيقاتها مستحيلة البلوغ فانه كان يعيش سرورا من نوع اخر حين يشمل الاكتشاف الجديد تغييرا ثوريا مباشرا في الصناعة و في التطور التاريخي عموما. فعلى سبيل المثال كان متابعا عن قرب لتطور الاكتشافات المحققة في مجال الكهرباء و اخرها تلك لمارسال دوبريMarcel Deprez.

كان ماركس قبل كل شيء ثوريا. و كانت مهمته الاولى في الحياة المساهمة بطريقة او باخرى في الاطاحة بالمجتمع الراسمالي و بمؤسسات الدولة التي جلبها معه و كذلك المساهمة في تحرير البروليتاريا الحديثة الذي كان اول من جعلها تعي بموقعها و حاجاتها و تعي بشروط تحررها. لقد كان الكفاح امرا اساسيا بالنسبة له فكافح بحب و عزم و نجاح لا ينافسه فيهم الا قليلون. و كان عمله في الجريدة الرينانية الاولى-1842- و في الى الامام الباريسية- Vorwarts*1844 - و في جريدة البروكسالي-Brussler - الالمانية-1847 - و في الرينانية الجديدة-1848-1849. وفي التريبيون النيويوركية-New York Tribune-1852-1861. وبالاضافة الى ذلك اشرافه على نشريات نضالية و عمله في منظمات في باريس و بروكسال و لندن و اخيرا توج كل ذلك بتكوينه جمعية الرجال العاملين العالمية. كان ذلك انجازا بامكان محققه ان يفخر به حتى و لو لم ينجز شيئا غيره.

و كنتيجة لذلك كان ماركس افضل المكروهين و اكثر المشهرين بهم في عصره فقامت حكومات مطلقة و جمهورية على حد السواء بترحيله عن اراضيها و تنافس البرجوازيون من المحافظين او من اقصى الديمقراطيين بالتشهير و الثلب لشخصه. لقد ازاحوا ماركس كما تزاح خيوط العنكبوت. لكن لم يعر ماركس اهتمامه بذلك و لم يرد الا عندما دعته الضرورة الى الرد. و مات محبوبا ممجدا و نعته الملايين من العمال الثوريين- من مناجم سيبيريا الى كاليفورنيا و في كافة انحاء اوروبا و امريكا.

و لمن المهم القول انه برغم خصومه العديدين فبالكاد ان كان له عدو شخصي واحد.

سيخلد اسمه على مر العصور و كذلك اعماله!

---

*: Vorwartsجريدة جذرية – راديكالية – للاشتراكيين الالمان في الهجرة و كان ماركس احد المساهمين فيها. و قد ظهرت بالالمانية في باريس سنة 1844.

سلســلة الفكــر الماركســـــي - 6 -

عرض موجز للماركسية

مقدمة

ان الكراس الذي تقرؤونه يتضمن اربع مقالات رئيسية بصدد الماركسية والمذهب الماركسي. المقال الاول والثالث كتبه لينين ويحمل عنوان(كارل ماركس: سيرة مختصرة وعرض موجز للماركسية) و (مصادر الماركسية الثلاثة واقسامها المكونة الثلاثة)

والمقال الثاني والرابع كتبه انجلز عن كارل ماركس ومفاهيمه واسهاماته العلمية والثورية.

ان المقالات الاربع تقدم عرضا موجزا واصيلا للفكر الماركسي بعيدا عن الشروحات والتحريفات التي سادت لعدة عقود في الحركة العمالية والشيوعية. انها تقدم عرضا رائعاً، من قبل مؤسسي الماركسية، للمفهوم المادي والديالكتيكي عن العالم وللثورة التي احدثته الفكر الماركسي باكتشافه قانون تطور التاريخ البشري والقوانين التي تحكم نمط الانتاج الرأسمالي في عصرنا.

كما ان تلك المقالات تبرز بشكل واضح المحتوى الثوري للماركسية وضرورة الاطاحة بالنظام الرأسمالي بواسطة ثورة الطبقة العاملة والمتحالفين معها. وهي تتضمن كذلك دروسا ومبادئ تكتيكية عظيمة للماركسيين والنشطاء الشيوعيين والاشتراكيين للاسترشاد بها والتعلم منها.

نظرا لتلك الاهمية وبناءا على ضرورة ارتكاز نهضة الحركة الشيوعية والاشتراكية في الوقت الراهن على اسس ماركسية وعلمية صحيحة ارتأينا جمع المقالات الاربع ونشرها في كراس واحد.

حركة انبثاق حزب العمال الشيوعيين -العراق
المكتب الاعلامي
كانون الاول 2003

خطاب على قبر كارل ماركس

✍ انجلز

توفي ماركس يوم 14 مارس 1883. و بعد ثلاثة ايام القى انجلز هذا الخطاب باللغة الانجليزية على ضريح ماركس بمقبرة هايغايت بلندن حيث دفن هناك. تكلم انجلز بالانجليزية و ظهر الخطاب في صحيفة المانية في ترجمة المانية ثم نشر الخطاب بالانجليزية مترجما عن الالمانية.

في الرابع عشر من مارس و على الساعة الثالثة الا ربع ظهرا توقف اعظم مفكر عن التفكير. لقد ترك وحيدا لدقيقتين بالكاد و حينما عدنا و جدناه جالسا في كرسيه نائما في هدوء و لكن الى الابد.

انها خسارة لا تقاس ضربت كلا من الطبقة العاملة المناضلة في اوروبا و امريكا و علم التاريخ بوفاة هذا الرجل. ان الثغرة التي نجمت عن رحيل هذه الروح العظيمة ستبرز بجلاء قريبا.

فمثلما اكتشف داروين قانون تطور الطبيعة العضوية اكتشف ماركس قانون تطور التاريخ البشري: الحقيقة البسيطة التي تخفيها هيمنة الايديولوجيا و هي ان الانسان يجب اولا ان ياكل و يشرب و يجد الماوى و الملبس قبل ان يصبح في استطاعته الاهتمام بالسياسة و العلم و الفن و الدين الخ... و بالتالي فان انتاج الوسائل المادية الضرورية للعيش و من ثمة درجة التطور الاقتصادي المحققة من طرف شعب ما او في حقبة ما تشكل الاساس الذي تقوم عليه مؤسسات الدولة و المفاهيم الشرعية و الفن و حتى الافكار حول الدين التي يختص بها هذا الشعب او ذاك و على ضوئها يجب ان تفسر و ليس العكس كما هو الحال.

و لكن ليس هذا كل ما في الامر. فقد اكتشف ماركس ايضا القانون الخاص بالحركة الذي يحكم نمط الانتاج الراسمالي لعصرنا و المجتمع البرجوازي الذي خلقه هذا النمط من الانتاج. ان اكتشاف فائض القيمة سلط الضوء فجاة على المشكلة محاولا حل ما عجزت عن حله جميع البحوثات السابقة من لدن الاقتصاديين البرجوازيين و كذلك النقاد الاشتراكيين.

ان هذين الاكتشافين لامر كاف في حياة شخص. و سيكون سعيدا ذاك الذي يتسنى له تحقيق ولو احدى هذين الاكتشافين.

علاوة على ذلك فانه و في كل حقل بحث فيه ماركس – و لئن بحث في حقول عديدة و لم يكن ذلك بسطحية في اي منها – حتى في حقل الرياضيات قام ماركس باكتشافات مستقلة.

الرأسمالية، ولا كيف تجد القوة الجماعية القادرة على انتصار خالقة المجتمع الجديد.

غير ان الثورات العاصفة التي رافقت سقوط الاقطاعية، القنانــة، في كـل مكـان مـن اوروبـا وخاصة في فرنسا، بينت بوضوح متزايد على الدوام ان النضال الطبقي هو اســاس كـل التطـور وقوته المحركة.

فما من حرية سياسية تم انتزاعها من طبقة الاقطاعيين دون مقاومة يائسة. وما من بلد رأسمالي قام على اساس حر، ديموقراطي، الى هذا الحد أو ذاك، دون قيام نضال حتى المـوت بـين مختلـف طبقات المجتمع الرأسمالي.

ومن عبقرية ماركس، انه كان أول من استخلص هذا الاستنتاج الذي ينطـوي عليـه التـأريخ العالمي وطبقه بصورة منسجمة الى النهاية، وهذا الاستنتاج هو مذهب النضال الطبقي.

لقد كان الناس وسيظلون ابدا، في حقل السياسة، اناسا سذجا يخدعــهم الآخـرون ويخدعـون انفسهم، ما لم يتعلموا استشفاف مصالح هذه الطبقات او تلك وراء التعابير والبيانـات والوعـود الاخلاقية والدينية والسياسية والاجتماعية. فإن انصار الاصلاحات والتحسينات سيكونون ابـدا عرضة لخداع المدافعين عن الاوضاع القديمة طالما يدركوا ان قوى هذه الطبقات السائدة او تلك تدعم كل مؤسسة قديمة مهما ظهر فيها من بربرية واهتراء، فلكي نسحق مقاومة هــذه الطبقـات ليس ثمة سوى وسيلة واحدة هي ان نجد في نفس المجتمع الذي يحيط بنا القــوى الـتي تسـتطيع – وينبغي عليها بحكم وضعها الاجتماعي – ان تغدو القوة القادرة على تكنيس القديم وخلق الجديد ثم ان نثقف هذه القوى وننظمها للنضال. فقط مادية ماركس الفلسفية بينت للبروليتاريا الطريق الواجب سلوكه للخروج من العبودية الفكرية التي كانت تتخبط فيها حتى ذلك جميـع الطبقـات المظلومة. فقط نظرية ماركس الاقتصادية اوضحت وضع البروليتاريـا الحقيقـي في مجمـل النظـام الرأسمالي.

ان المنظمات البروليتارية المستقلة تتكاثر في العالم باسره من امريكا الى اليابان ومن اسوج الى افريقيا الجنوبية، والبروليتاريا تتعلم وتتربى في غمرة نضالها الطبقــي وتتحـرر مـن اوهـام المجتمـع البرجوازي وتزداد تلاحما على الدوام وتتعلم كيف تقدر نجاحاتها حق قدرها وتوطد قواها وتنمو بشكل لا مرد له.

* ف.إ.لينين في 3 آذار 1913، المؤلفات الكاملة

كـــارل مـــاركس
سيرة مختصرة وعرض للماركسية

✍ فلاديمير لينين

مقدمة

ان المقال عن كارل ماركس الذي يصدر بشكل كراس كتبته على ما اذكـــر في عـــام 1913 لموسوعة "غرانات"Granat. وقد الحقت في نهاية المقال قائمة مفصلة الى حد كاف بالمطبوعـــات الاجنبية في الاغلب عن ماركس. و هذه القائمة غير واردة في الطبعة الحالية. ثم ان هيئـــة تحريـــر الموسوعة قد نبذت لاسباب تتعلق بالرقابة نهاية المقال التي تعرض تاكتيك ماركس الثوري. ومـــع الاسف لا استطيع ان اورد هنا هـــذه النهايـــة لان المســـودة بقيـــت بـــين اوراقـــي في مكـــان مـــا في كراكوفيا او سويسرا. الا اني اذكر فقط انني اوردت في نهايـــة المقـــال فيمـــا اوردت مقطعـــا مـــن رسالة ماركس الى انجلس بتاريخ 17 نيسان/ابريل 1857 حيث جاءت كلمات ماركس التاليـــة: "سيتوقف كل شيء في المانيا على امكانيـــة دعـــم الثـــورة البروليتاريـــة بطبعـــة مـــا جديـــدة لحـــرب الفلاحين. عندئذ يكون كل شيء على ما يرام." و هـــذا مـــا لم يفهمـــه في ســـنة 1905 مناشـــفتنا* الذين بلغ بهم الامر الان حد خيانة الاشتراكية خيانة تامة و الانتقال الى جانب البرجوازية.

ن. لينين
موسكو 14 ايار1918

كـــارل مـــاركس

ولد كارل ماركس في الخامس من ايار سنة 1818 في مدينة ترير بروسيا الرينانية. وكان ابوه محاميا و كان يهوديا ثم اعتنق البروتستانتية في سنة 1824. ولم تكن عائلـــة مـــاركس الميســـورة و المثقفة عائلة ثورية. و بعد ان اتم دراسته الثانوية في مدينة ترير دخل جامعة بون ثم جامعة برلـــين فدرس الحقوق وبنوع خاص التاريخ و الفلسفة. وفي سنة 1841 انجز دراســـته بتقديـــم اطروحتـــه الجامعية حول فلسفة ابيقور. اما مفاهيمه فكانت حتى ذلك الوقت ما تزال مفاهيم هيغلية –نسبة

الى هيغل–مثالية. و في برلين انضم الى حلقة "الهيغليين اليساريين"[1] (برونو بـاور و غـيره) الذيـن كانوا يحاولون ان يستخلصوا من فلسفة هيغل استنتاجات الحادية و ثورية.

وعندما تخرج ماركس من الجامعة اقام في مدينة بون حيث كان يامل بالحصول على منصـب استاذ في الجامعة. ولكن السياسة الرجعية التي كانت تسلكها الحكومة كانت قـد اقصت، عـام 1832، لودفيغ فيورباخ عن منصبه كاستاذ، و عادت في سنة 1837، فرفضت من جديد السماح له بدخول الجامعة و منعت في سنة 1841 الاستاذ الشاب برونو باور من القاء محاضرات في بون. هذه السياسة الرجعية اضطرت ماركس الى العدول عن الحياة الجامعية. في ذلـك الوقـت كـانت افكار الهيغلية اليسارية تتقدم سريعا جدا في المانيا. وكان لودفيغ فيورباخ قـد اخـذ، منـذ 1837 على الخصوص، يوجه النقد الى علم اللاهوت و يتجه نحو المادية التي احرزت الغلبة نـهائيا عنـده في سنة 1841 (كتاب "جوهر المسيحية") و في سنة 1843 ظهر كتابه "اسس فلسـفة المسـتقبل." لقد كتب انجلس فيما بعد حول هذين المؤلفين لفيورباخ: "كان يجب ان يكون الانسان قد تحسس بنفسه الاثر التحرري لهذين الكتابين...فلقد اصبحنا نحن جميعا" (اي الهيغليين اليساريين بمن فيهم ماركس) "دفعة واحدة من اتباع فيورباخ."[2] وفي ذلك الوقت اسس البرجوازيون الراديكاليون في رينانيا، الذين كان لهم بعض نقاط تماس مع الهيغليين اليساريين، جريدة معارضة في مدينة كولونيا باسم "الجريدة الرينانية" [3](التي اخذت تصدر ابتداء من اول كانون الثاني سنة 1842) و قد دعي ماركس وبرونو باور الى العمل محررين اساسيين فيـها. و في تشـرين الاول /أكتوبـر سـنة 1842 اصبح ماركس رئيس تحريرها فانتقل من مدينة بون الى كولونيا. وتحت ادارة ماركس اخـذ اتجـاه الجريدة الديمقراطي الثوري يزيد وضوحا. فعمدت الحكومة في اول الامـر الى اخضـاع الجريـدة لرقابة ثنائية بل ثلاثية ثم امرت بتعطيلها تماما ابتداء من اول كانون الثاني سـنة 1843. فـاضطر ماركس حينئذ للتخلي عن مركزه في تحرير الجريدة ولكن ذهاب ماركس لم ينقذ الجريدة اذ انـها منعت من الصدور في آذار 1843. ومن اهم المقالات التي نشرها ماركس في "الجريدة الرينانيـة"[4] يشير انجلس الى مقال حول اوضاع الفلاحين الكرامين في واد الموزيل[5]. و قد ادرك ماركس مـن نشاطه الصحفي ان معلوماته في الاقتصاد السياسي غير كافية فاندفع بحماسة الى دراسته.

في سنة 1843 تزوج ماركس في كريزناخ من جيني فـون ويسـتفالن، صديقـة طفولتـه الـتي خطبها وهو ما يزال طالبا. كانت نوجته تنحدر من عائلة نبيلة رجعية بروسية. وكان اخـو جيـني فون ويستفالن الاكبر وزيرا للداخلية في بروسيا في مرحلة كـانت مـن اشـد المراحـل اغراقـا في

الضخم واستخدام الآلات يزدادان، والاستثمارات الفلاحية تقع في ربقة الرأسمالي النقدي وتنحط ويحل بها الخراب تحت وطأة تكنيكها المتـأخر، ان اشكال هذا الانحطاط في الانتاج الصغير تختلف في الزراعة عنها في الصناعة، ولكن الانحطاط نفسه واقع لا جدال فيه.

ان الرأسمال، اذ يغلب على الانتاج الصغير، يؤدي الى زيادة انتاجية العمـل والى خلـق وضـع احتكاري في صالح جمعيات الرأسماليين الكبار. وصفة الانتاج الاجتماعية تـزداد بـروزا يـوم بعـد يوم. مئات الآلاف والملايين من العمال يُجمعون في هيئــة اقتصاديــة متناسـقة، بينمـا قبضـة مـن الرأسماليين تستملك نتاج العمل المشترك. وتشتد فوضى الانتاج، والازمات والركض المجنون وراء الاسواق، وعدم ضمان العيش لسواد السكان.

ان النظام الرأسمالي يزيد من تبعية العمال ازاء الرأسمال ويخلق في الوقـت نفسـه قـدرة العمـل الموحد الكبيرة.

لقد تتبع ماركس تطور الرأسمالية من عناصر الاقتصــاد البضـاعي الاوليـة والتبـادل البسـيط وحتى اشكالها العليا، الانتاج الكبير.

وان تجربة جميع البلدن الرأسمالية، القديمة منها والجديدة، تبين بوضوح وسنة بعد سنة، صحــة مذهب ماركس هذا لعدد متزايد ابدا من العمال.

لقد انتصرت الرأسمالية في العالم بأسره، ولكن هذا لانتصار ليس سوى المقدمة لانتصار العمال على الرأسمال.

-- 3 --

عندما دُك النظام القطاعي، ورأى المجتمع الرأسمالي ((الحر)) النور، تبين فـورا ان هـذه الحريـة تعني نظاما جديدا لاضطهاد الشغيلة واستثمارهم، وفورا اخذت تنبثق شتى المذاهـب الاشـتراكية انعكاسا لهذا الاضطهاد واحتجاجا عليه، ولكن الاشتراكية البدائية كانت اشتراكية طوبوية. فقـد كانت تنتقد المجتمع الرأسمالي، تشجبه، تلعنه، وتحلم بازالته، وتتخيـل نظامـا افضـل؛ وتسـعى الى اقناع الاغنياء بأن الاستثمار مناف للاخلاق.

ولكن الاشتراكية الطوبوية لم تكن بقادرة على الاشارة الى مخـــرج حقيقـي. ولم تكـن لتعـرف كيف تفسر طبيعة العبودية المأجورة في ظل النظام الرأسمالي، و لا كيــف تكتشـف قوانـين تطـور

على اساس اقتصادي، فاننا نرى، مثلا كيف ان مختلف الاشكال السياسية للدول الاوروبية العصرية هي اداة لتعزيز سيطرة البرجوازية على البروليتاريا.

ان فلسفة ماركس هي مادية فلسفية كاملة، اعطت الانسانية، والطبقة العاملة بخاصة، ادوات جبارة للمعرفة.

-- 2 --

بعد ما لاحظ ماركس ان النظام الاقتصادي يشكل الاساس الذي يقوم عليه البناء الفوقي السياسي، أعار انتباهه اكثر ما اعاره لدراسة هذا النظام الاقتصادي، ومؤلف ماركس الرئيسي ((رأس المال)) مكرّس لدراسة النظام الاقتصادى في المجتمع الحديث، أي الرأسمالي.

لقد تكون الاقتصاد السياسي الكلاسيكي، ماقبل ماركس في انجلترا، وكان اكثر البلدان الرأسمالية تطورا. فقد درس آدام سميث ودافيد ريكاردو النظام الاقتصادي فسجلا بداية نظرية قيمة –العمل. وواصل ماركس عملهما. فأعطى هذه النظرية اساسا علميا خالصا وطورها بصورة منسجمة الى النهاية، وبين ان قيمة كل بضاعة مشروطة بوقت العمل الضروري اجمالا لانتاج هذه البضاعة.

و حيث كان الاقتصاديون البرجوازيون يرون علاقات بين الاشياء (مبادلة بضاعة ببضاعة أخرى)، اكتشف ماركس علاقات بين الناس المنفردين. والمال(النقد) يعني ان هذه الصلة تزداد وثوقا، جامعة في كل واحد لايتجزأ كل حياة المنتجين المنفردين الاقتصادية. والرأسمال يعني استمرار تطور هذه الصلة. فان قوة عمل الانسان تغدو بضاعة. فالاجير يبيع قوة عمله لمالك الارض ولصاحب المصنع وادوات الانتاج، والعامل يستخدم قسما من يوم العمل لتغطية نفقات اعالته واعالة اسرته(الاجرة)؛ ويستخدم القسم الآخر للشغل مجانا، خالقا للرأسمالي القيمة الزائدة، التي هي مصدر ربح، مصدر اثراء للطبقة الرأسمالية.

ان نظرية القيمة الزائدة تشكل حجر الزاوية في نظرية ماركس الاقتصادية.

ان الرأسمال الذي يخلقة عمل العامل ينيخ بثقله على العامل، يخرب صغار ارباب العمل ، وينشيء جيشا من العاطلين عن العمل. وانتصار الانتاج الضخم في الصناعة امر ظاهر من نظرة الاولى؛ ولكننا لنلاحظ ظاهرة مماثلة في الزراعة ايضا: فان تفوق الاستثمار الزراعي الرأسمالي

الرجعية وذلك بين 1850 و 1858.

وفي خريف 1843 انتقل ماركس الى باريس ليصدر في الخارج مجلة راديكالية مع ارنولد روغه (عاش ارنولد روغه من سنة 1802 الى سنة 1880. وكان هيغيليا يساريا. وسجن من 1825 الى 1830 و هاجر بعد سنة 1848. و بعد 1866– 1870 اصبح من انصار بسمارك). ولكن لم يصدر من هذه المجلة المسماة "الحولية الالمانية الفرنسية" سوى العدد الاول اذ اضطرت للتوقف بسبب الخلافات مع روغه[6]. وفي المقالات التي نشرتها هذه المجلة برز ماركس ثوريا ينادي "بانتقاد لا هوادة فيه لكل ما هو كائن" بما في ذلك "الانتقاد بالسلاح"[7] ويتوجه بالنداء الى الجماهير و البروليتاريا.

في ايلول /سبتمبر سنة 1844 جاء فريدريك انجلس الى باريس لقضاء بضعة ايام فيها فاصبح منذ ذلك الحين الصديق الحميم لماركس. وقد اسهم كلاهما باشد الحماسة في الحياة المحمومة للجماعات الثورية التي كانت آنذاك في باريس (وكانت تولي هناك اهمية خاصة لمذهب برودون[8] وقد صفى ماركس حساب هذا المذهب تصفية قاطعة في كتابه "بؤس الفلسفة" الذي صدر عام 1847) وخاضا نضالا حادا ضد مختلف نظريات الاشتراكية البرجوازية الصغيرة وصاغا نظرية و تكتيك الاشتراكية البروليتارية الثورية او الشيوعية (الماركسية). راجع مؤلفات ماركس في هذه المرحلة الممتدة من 1844 الى 1848 في قائمة الكتب. و في سنة 1845 طرد ماركس من باريس لكونه ثوريا خطرا بناء على طلب الحكومة البروسية. فجاء الى بروكسل و اقام فيها. و في ربيع 1847 انتمى ماركس و انجلس الى جمعية سرية للدعاية هي "عصبة الشيوعيين"[9] وقاما بقسط بارز في المؤتمر الثاني لهذه العصبة المنعقد في لندن. و في تشرين الثاني 1847 و بناء على تكليف المؤتمر وضع ماركس و انجلس "بيان الحزب الشيوعي" المشهور الذي نشر في شباط 1848. ان هذا الكتاب يعرض بوضوح ودقة عبقريين المفهوم الجديد للعالم، يعرض المادية المتماسكة التي تشمل ايضا ميدان الحياة الاجتماعية و الديالكتيك بوصفه العلم الاوسع و الاعمق للتطور ونظرية النضال الطبقي والدور الثوري الذي تضطلع به البروليتاريا، خالقة المجتمع الجديد، المجتمع الشيوعي، في التاريخ العالمي.

وعندما انفجرت ثورة شباط/فيفري 1848 [10] طرد ماركس من بلجيكا فعاد الى باريس ليتركها بعد ثورة آذار[11] و يعود الى المانيا ليقيم في مدينة كولونيا حيث صدرت من اول حزيران 1848 الى 19 ايار سنة 1849 "الجريدة الرينانية الجديدة"[12] التي كان ماركس رئيس

تحريرها. وقد اثبت مجـرى الاحـداث الثوريـة في 1848–1849 كمـا اثبتـت فيمـا بعـد جميـع الحركات البروليتارية و الديمقراطيـة في جميـع بلـدان العـالم صحـة النظريـة الجديـدة علـى نحـو ساطع. في بادئ الامر اقدمت الحركة الظافرة المعادية للثـورة علـى احالـة مـاركس الى القضـاء (لكن تم تبرئته في 9 شباط/فيفري 1849) ثم نفتـه مـن المانيـا في 16 ايـار 1849. فـانتقل اولا الى باريس حيث طرد منها ايضا بعد تظاهرة 13حزيران1849 [13]. ثـم ذهـب الى لنـدن حيـث عاش حتى اخر ايامه.

ان ظروف حياة المهاجر هذه كانت مضنية الى اقصى حـد كمـا يتبـين بوضـوح شـديد مـن مراسلات ماركس و انجلس (المنشورة سنة 1913) فقد عاش ماركس و عائلته تحت وطأة الفقـر المدقع و لولا المساعدة المالية الدائمة المخلصة التي كان يقدمها له انجلس لا استحال على ماركس انجاز كتاب "راس المال" و حسب بل لكان هلك حتما من البـؤس. و مـن جهـة اخـرى كـانت المذاهب و التيارات السائدة في الاشتراكية البرجوازية الصغـيرة و الاشـتراكية غـير البروليتاريـة بوجه عام تضطر ماركس الى خوض نضال دائم لا هوادة فيه كما كانت تضطره احيانا للرد على اكثر التهجمات الشخصية جنونا و غباوة [14]. وقد تحاشى ماركس حلقات المهاجرين و صـاغ في جملة من المؤلفات التاريخية نظريته المادية باذلا جهده على دراسة الاقتصاد السياسـي. وقـد نفـح ماركس في هذا العلم روحا ثورية (انظر مذهب مـاركس لاحقـا) في مؤلفيـه: "مسـاهمة في نقـد الاقتصاد السياسي"(1859) و "راس المال"(المجلد الاول 1867).

ثم جاءت مرحلة انتعاش النشاط في الحركة الديمقراطية في اواخر العقد السادس و في العقـد السابع فدفعت ماركس من جديد الى النشـاط العملـي. ففـي سـنة 1864(28 ايلـول/سـبتمبر) تأسست في لندن الاممية الاولى المشهورة "جمعية الشغيلة العالمية. وكان ماركس روحها كما كـان ايضا واضع "رسالتها" الاولى [15] و عدد كبير من المقررات و التصريحات والبيانات. ان مـاركس بجمعه شمل الحركة العمالية في مختلف البلدان و سعيه الى توجيـه شـتى اشـكال الاشـتراكية غـير البروليتارية السابقة للماركسية (مـازيني، بـرودون، بـاكونين، التريديونيـة الليبراليـة الانجليزيـة، الانحرافات اللاسالية اليمينية في المانيا، الخ.) في طريق النشاط المشترك وكفاحه نظريات جميع هذه الشيع و المدارس الصغيرة قد صاغ تكتيكا موحدا لنضال الطبقة العاملـة البروليتـاري في مختلـف البلدان. وبعد سقوط كومونة باريس (1871) التي قدرها ماركس تقديرا عميقا، اخـاذا، بـاهرا، فعالا، ثوريا ("الحرب الاهلية في فرنسا" 1871) وبعد الانشـقاق الـذي احدثـه البـاكونيون[16] في

الثامن عشر، في فرنسا، حيث كان يجري نضال حاسم ضد كل نفايات القرون الوسطى، ضد الاقطاعية في النهاية، والامينة لجميع تعاليم العلوم الطبيعية، والمعادية للاوهام ولتصنّع التقوى و..الخ، ولذا بذل اعداء الديموقراطية كل قواهم لـ((دحض)) المادية، لتقويضها، للافتراء عليها؛ ودافعوا عن شتى اشكال المثالية الفلسفية التي تؤول ابرادا، على نحو أو آخر، الى الدفاع عن الدين أو الى نصرته.

وقد دافع ماركس وانجلس بكل حزم عن المادية الفلسفية وبيّنا مرارا عديدة مافي جميع الانحرافات عن هذا الاساس من اخطاء عميقة، ووجهات نظرهم معروضة بأكثر ما يكون من الوضوح والتفاصيل في مؤلفي أنجلس: ((لودفيغ فورباخ)) و((دحض دوهرينغ))، اللذين هما، على غرار ((البيان الشيوعي))، الكتابان المفضلان لدى كل عامل واع.

ولكن ماركس لم يتوقف عند مادية القرن الثامن عشر، بل دفع الفلسفة خطوات الى الامام، فأغناه بمكتسبات الفلسفة الكلاسيكية الالمانية، ولاسيما بمكتسبات مذهب هيغل، الذي قاد بدوره الى مادية فيورباخ. وأهم هذه المكتسبات، الديالكتيك، أي نظرية التطور بأكمل مظاهرها واشدها عمقا، واكثرها بعدا عن ضيق الافق، نظرية نسبية المعارف الانسانية التي عكس المادية في تطورها الدائم. ان احدث اكتشافات العلوم الطبيعية – الراديوم، والالكترونات، وتحوّل العناصر – قد اثبتت بشكل رائع صحة مادية ماركس الديالكتيكية، رغم انف مذاهب الفلاسفة البرجوازيين ورغم ردّاتهم ((الجديدة)) نحور المثالية القديمة المهترئة.

وقد عمق ماركس المادية الفلسفية وطوّرها، فانتهى بها الى نهايتها المنطقية ووسع نطاقها من معرفة الطبيعة الى معرفة المجتمع البشري. ان مادية ماركس التأريخية كانت اكبر انتصار احرزه الفكر العلمي، فعلى اثر البلبلة والاعتباط اللذين كان سائدان حتى ذلك الحين في مفاهيم السياسة والتاريخ، جاءت نظرية علمية، روعة في التناسق والتجانس والانسجام، تبين كيف ينبثق ويتطور، من شكل معين من التنظيم الاجتماعي، ومن جراء نمو القوى المنتجة، شكل آخر، ارفع، – كيف تولد الرأسمالية من الاقطاعية، مثلاً.

وكما ان معرفة الانسان تعكس الطبيعة القائمة بصورة مستقلة عنه، أي المادة في طريق التطور، كذلك تعكس معرفة الانسان الاجتماعية (أي مختلف الآراء والمذاهب الفلسفية او الدينية والسياسية، ...الخ) نظام المجتمع الاقتصادي، ان المؤسسات السياسية تقوم كبناء فوقي

مصادر الماركسية الثلاثة
واقسامها المكونة الثلاثة

✍ لينين

يثير مذهب ماركس، في مجمل العالم المتمدن، اشد العداء والحقد لدى العالم البرجوازي، كله (سواء الرسمي ام الليبرالي)، اذ يرى في الماركسية ضربا من ((بدعة ضارة)). ليس بالامكان توقع موقف آخر، اذ لايمكن ان يكون ثمة علم اجتماعي ((غير متحيّز)) في مجتمع قائم على النضال الطبقي. فكل العلم الرسمي الليبرالي يدافع، بصور او باخرى، عن العبودية المأجورة، بينما الماركسية اعلنتها حربا لا هوادة فيها ضد هذه العبودية، أن تطلب علما غير متحيّز في مجتمع قائم على العبودية المأجورة، لمن السذاجة الصبيانية كأن تطلب من الصناعيين عدم التحيز في مسألة ما اذا كان يجدر تخفيض ارباح الرأسمال من اجل زيادة اجرة العمال.

ولكن ليس ذلك كل ما في الامر، فان تأريخ الفلسفة وتأريخ العمل الاجتماعي يبينان بكل وضوح ان الماركسية لا تشبه (الانعزالية)) بشيء بمعنى انها مذهب متحجر منطو على نفسه، قام بمعزل عن الطريق الرئيسي لتطور المدنية العالمية. بل بالعكس، فان عبقرية ماركس كلها تتقوم بالضبط في كونه اجاب على الاسئلة التي طرحها الفكر الانساني التقدمي، وقد ولد مذهبه بوصفه التتمة المباشرة الفورية لمذهب اعظم ممثلي الفلسفة والاقتصاد السياسي والاشتراكية.

ان مذهب ماركس لكلّي الجبروت، لانه صحيح، ومتناسق وكامل ويعطي الناس مفهوما منسجما عن العالم، لايتفق مع أي ضرب من الاوهام ومع اية رجعية، ومع أي دفاع عن الطغيان البرجوازي. وهو الوريث الشرعي لخير ما ابدعته الانسانية في القرن التاسع عشر: الفلسفة الالمانية، الاقتصاد السياسي الانجليزي، والاشتراكية الفرنسية.

واننا سنتناول بإيجاز مصادر الماركسية الثلاثة هذه، التي هي في الوقت نفسه اقسامها المكوّنة الثلاثة.

-- 1 --

ان المادية هي فلسفة الماركسية، في غضون كل تأريخ اوروبا الحديث، لاسيما في اواخر القرن

الاممية لم يعد باستطاعة هذه الاممية ان تعيش في اوروبا وعقب مؤتمر 1872 في لاهاي انتقل المجلس العام للاممية الى نيويورك بناء على رأى ماركس. وهكذا انجـزت الامميـة الاولى مهمتـها التاريخيـة مفسحة المجال لمرحلة من النمو في الحركة العمالية في جميع البلدان نموا اقوى و اشد مما مضـى الى ما لا حد له، مرحلة تطور هذه الحركة من حيث الاتساع مرحلة تأليف احزاب عمالية اشتراكية جماهيرية على اساس شتى الدول القومية.

وما بذله ماركس من نشاط شديد في الاممية و ما قام به من اعمال نظرية بمزيـد مـن الشـدة ايضا قد زلزلا صحته زلزلة نهائية. وقد واصل وضع الاقتصاد السياسـي علـى اسـس جديـدة و اتمام كتاب "راس المال" جامعا عددا ضخما من المستندات الجديدة و دارسا عـدة لغـات (اللغـة الروسية مثلا) ولكن اقعده المرض عن انجاز كتاب "راس المال".

وفي الثاني من كانون الاول سنة 1881 ماتت زوجته. وفي 14 آذار سنة 1883 رقد ماركس في كرسيه رقادا اخيرا هادئا و دفن مع زوجته في مقبرة هايغات في لندن. وقد مات لماركس عدة ابناء و ما يزالون اطفالا في لندن حين كانت عائلته تعـاني بؤسـا مدقعـا. وكـانت بناتـه الثـلاث متزوجات من اشتراكيين من انجلترا و فرنسا وهن: ايلينوار ايفلينغ و لورا لافارغ و جيني لونغـي وابن هذه الاخيرة عضو في الحزب الاشتراكي الفرنسي.

مذهب ماركس

الماركسية هي منهج افكار ماركس و مذهبـه. لقـد تـابع مـاركس و اتم علـى نحـو عبقـري التيارات الفكرية الرئيسية الثلاثة في القرن التاسع عشر و التي تعزى الى البلدان الثلاثـة الاكـثر تقدما في العالم: الفلسـفة الكلاسـيكية الالمانيـة و الاقتصـاد السياسـي الكلاسـيكي الانجلـيزي و الاشتراكية الفرنسية المرتبطة بالتعاليم الثورية الفرنسية بوجه عام. ان ما تتصف به افكار ماركس من منطق رائع و انسجام تام انما يعترف به له حتى خصومه. و تؤلف افكار مـاركس بمجموعـها المادية الحديثة و الاشتراكية العلمية المعاصرة بوصفها نظرية الحركة العماليـة و برنامجـها في جميـع البلدان المتمدنة في العالم. كل هذا يحملنا على ان نقدم لعـرض المضمـون الرئيسـي للماركسـية، مذهب ماركس الاقتصادي، بلمحة موجزة عن مفهومه للعالم بوجه عام.

المادية الفلسفية

كان ماركس قد اصبح ماديا منذ 1844–1845 اي في الفترة التي تكونت فيها افكاره: لقد كان، بوجه خاص، من اتباع فيورباخ. و لم يقرا ماركس بما عند فيورباخ من نقاط ضعف حتى فيما بعد الا من حيث عدم الكفاية في منطق ماديته وشمولها. لقد كان يرى ان الشان التاريخي العالمي لفيورباخ الذي "شغل دهرا" قائم بالضبط على مقاطعته النهائية لمثالية هيغل و توكيده للمادية، هذه المادية التي " لم تكن في القرن الثامن عشر وخصوصا في فرنسا نضالا ضد المؤسسات السياسية الراهنة و كذلك ضد الدين و اللاهوت و حسب بل ايضا... ضد كل ميتافيزية" (بمعنى "التاملات المخمورة" و بخلاف "الفلسفة المعقولة") (كتاب "العائلة المقدسة" في "التركة الادبية")[17]. وكتب ماركس ايضا: "يرى هيغل ان حركة الفكر، هذه الحركة التي يشخصها و يطلق عليها اسم الفكرة، هي الاله (الخالق، الصانع)... اما انا فاني ارى العكس : ان حركة الفكر ليست الا انعكاسا لحركة المادة منقولة الى دماغ الانسان و متحولة فيه"("راس المال" المجلد الاول. توضيح في اخر الطبعة الثانية)[18]. و على نحو تام الانسجام مع فلسفة ماركس المادية هذه كتب فريدريك انجلس عند شرحه لها في كتابه "ضد دوهرنغ" الذي قراه ماركس قبل الطبع يوم كان مخطوطة: "ان وحدة العالم ليست في كيانه...بل في ماديته. و هذه المادية قد اثبتها...تطور طويل و شاق للفلسفة و علوم الطبيعة... الحركة شكل وجود المادة. لم يوجد قط و لا يمكن ان يوجد ابدا في اي مكان مادة بدون حركة و لا حركة بدون مادة...ولكن اذن تساءلنا... عن ماهية الفكر و المعرفة وعن مصدرهما نجد انهما انتاج الدماغ الانساني و ان الانسان نفسه هو نتاج الطبيعة الذي نما و تطور في محيط طبيعي معين و مع هذا المحيط. و اذ ذاك يغدو من البداهة ان نتاجات دماغ الانسان التي هي ايضا عند اخر تحليل نتاجات للطبيعة ليست في تناقض بل في انسجام مع سائر الطبيعة". " لقد كان هيغل مثاليا اي ان الافكار في دماغه لم تكن في نظره الا صور مجردة،(في الاصل: انعكاسات، يستعمل انجلس احيانا كلمة 'نسخ') الى هذا الحد او ذاك، عن الاشياء و التطورات الواقعية. بل على العكس من ذلك فالاشياء و تطورها لم تكن في نظر هيغل الا صورا تعكس الفكرة التي كانت موجودة، و لا اعلم اين، قبل وجود العالم"[19]. وقد كتب انجلس في مؤلفه "لودفيغ فورباخ" الذي عرض افكاره فيه و افكار ماركس حول فلسفة فورباخ و الذي لم يدفعه الى الطبع الا بعد ان اعاد قراءة المخطوطة القديمة حول هيغل وفورباخ والمفهوم المادي للتاريخ الذي وضعها بالتعاون مع ماركس في 1844–1845

تحت الحكم النمساوي.

19/ (داس فولك- الشعب): جريدة اسبوعية، صدرت باللغة الالمانية في لندن من 7 ايار الى 20 اب 1859، بمشاركة ماركس المباشرة. ابتداءا من تموز كان ماركس عمليا رئيس تحريرها.

20/ المقصود هنا قصر التويلري في باريس، وهو مقر نابليون الثالث.

21/ في 4 ايلول 1870 قامت الجماهير الشعبية باعمال ثورية ادت الى سقوط نظام الامبراطورية الثانية، والى اعلان الجمهورية وتاليف حكومة مؤقتة اسميت بحكومة الدفاع الوطني، وعلاوة على الجمهوريين المعتدلين، اشترك الملكيون في هذه الحكومة. سلكت هذه الحكومة برئاسة حاكم باريس العسكري تروشو وملهمه الفعلي تير سبيل الخيانة الوطنية والتامر الغدار مع العدو الخارجي.

22/ انعقد مؤتمر جمعية الشغيلة العالمي في لاهاي: من 2 الى 7 ايلول 1872. وقد حضره 65 مندوبا عن 15 منظمة وطنية. اشرف ماركس وانجلز على عمل المؤتمر. وفي المؤتمر بلغ النضال الذي خاضه ماركس وانجلس وانصارهما طوال سنوات عديدة ضد الانعزالية البرجوازية الصغيرة بجميع صورها في الحركة العمالية غايته. فقد شجب المؤتمر نشاط الفوضويين الانشقاقي وفصل زعمائهم من الاممية. ارست قرارات مؤتمر لاهاي الاساس لانشاء احزاب سياسية مستقلة للطبقة العاملة في مختلف البلدان.

23/ كومونة باريس: حكومة ثورية للطبقة العاملة، دامت من 28 اذار الى 28 ايار 1871. بمعنى الكلمة الواسع يسمون كذلك بكومونة باريس الثورة البروليتارية بالذات التي نشبت في 28 اذار 1871 ومرحلة ديكتاتورية البروليتاريا التي تلتها. ويتناول "مؤلف الحرب الاهلية في فرنسا" لماركس تاريخ كومونة باريس ويكشف جوهرها بالتفصيل.

الجمعية الوطنية البروسية من برلين الى بلدة براندنبورغ النائية. وواصلت اغلبية الجمعية عقد جلساتها في برلين ففرقتها القوات المسلحة في 15 تشرين الثاني. انتهى الانقلاب بحل الجمعية في 5 كانون الاول واعلان دستور رجعي.

13/ المقصود هنا انتفاضات الجماهير الشعبية في المانيا من ايار الى تموز 1849 دفاعا عن دستور الامبراطورية (الذي اقرته الجمعية الوطنية في فرانكفورت في 28 اذار 1849 ورفضته جملة من الدويلات الالمانية. كانت هذه الانتفاضات متفرقة وعفوية وتم قمعها في اواسط تموز 1849.

14/ في 13 حزيران 1849 نظم حزب "الجبل" البرجوازي الصغير مظاهرة سلمية في باريس احتجاجا على ارسال القوات المسلحة الفرنسية الى ايطاليا من اجل قمع الثورة فيها. فرقت القوات المسلحة المظاهرة. وقد تعرض عدد كبير من زعماء "الجبل" للاعتقال والنفي او اضطروا الى مغادرة فرنسا.

15/ محاكمة الشيوعيين في كولونيا (من 4 تشرين الاول الى 12 تشرين الثاني 1852) محاكمة استفزازية دبرتها الحكومة البروسية ضد 11 عضوا من اعضاء عصبة الشيوعيين.و قد وجهت الى سبعة من المتهمين تهمة الخيانة العظمى بالاستناد الى وثائق مزورة وشهادات كاذبة. وحكم عليهم بالسجن في قلعة لمدة تتراوح بين 3 سنوات و6. فضح ماركس وانجلز الطرائق الاستفزازية الخسيسة التي لجات اليها الدولة البوليسية ضد الحركة العمالية والعالمية.

16/ نيورك ديلى تريبون (منبر نيورك اليومي): جريدة برجوازية تقدمية، صدرت من 1841 الى 1924. من اب 1851 الى اذار 1862، عاون ماركس وانجلز في الجريدة.

17/ الحرب الاهلية في الولايات المتحدة الامريكية (1861–1865): نشبت بين ولايات الشمال الصناعية وبين ولايات الجنوب التي يسود فيها نظام الرق والتي قامت بفتنة. وقفت الطبقة العاملة في بريطانيا ضد سياسة البرجوازية البريطانية التي دعمت المزارعين مالكي العبيد. وحالت دون تدخل بريطانيا في الحرب الاهلية في الولايات المتحدة الامريكية.

18/ الحرب الايطالية: حرب فرنسا والبيامونت ضد النمسا في 1859 اشعل نابليون الثالث نيرانها بحجة تحرير ايطاليا، ولكن بالفعل من اجل تحقيق الفتوحات الاقليمية وتوطيد النظام البونابارتي في فرنسا. الا ان نابليون الثالث وقد تملكه الذعر من اتساع نطاق حركة التحرر الوطني في ايطاليا ورغبة منه في الحفاظ على تجزوؤها السياسي عقد معاهدة صلح منفرد مع النمسا. وبنيجة الحرب نالت فرنسا سافوا ونيس وضمت لومبارديا الى سردينيا، وبقيت البندقية

يقول: " ان المسالة الاساسية العظمى في كل فلسفة و لا سيما الفلسفة الحديثة هي مسالة علاقة الفكر بالكائن او علاقة العقل بالطبيعة... ايهما يسبق الاخر العقل ام الطبيعة... وكان الفلاسفة تبعا لاجاباتهم على هذا السؤال قد انقسموا الى معسكرين كبيرين: فؤلائك الذين كانوا يؤكدون تقدم العقل على الطبيعة و يقبلون على هذا النحو في اخر تحليل بخلق العالم ايا كان نوع هذا الخلق ...الفوا معسكر المثالية. و الآخرون الذين كانوا يقررون تقدم الطبيعة انتموا الى مختلف مدارس المادية." وكل مفهوم اخر للمثالية والمادية – بالمعنى الفلسفي– ليس من شانه الا خلق البلبلة. وقد نبذ ماركس نبذا قاطعا، ليس فقط المثالية المقرونة ابدا الى الدين، بشكل او باخر، بل نبذ ايضا وجهة نظر هيوم وكانط المنتشرة خصوصا في ايامنا هذه، و العجزية، و الانتقادية، و المذهب الوضعي[20] باشكالها المختلفة اذ انه كان يعتبر هذا النوع من الفلسفة بمثابة تنازل "رجعي" امام المثالية و في احسن الاحوال بمثابة "اسلوب جبان يقبل المادية في السر و ينكرها في العلن."[21] وبصدد هذا راجعوا رسالة ماركس الى انجلز المؤرخة في 12 كانون الاول/ديسمبر 1868 التي يتحدث فيها عن محاضرة العالم الطبيعي الشهير توماي هكسلي و يلاحظ فيها ان هذا العالم قد ظهر "ماديا اكثر من العادة" و اعترف "بأننا ما دمنا نلاحظ فعلا و ما دمنا نفكر فلا نستطيع ان نخرج ابدا من المادية" ثم يتهمه ماركس بأنه "فتح بابا سريا " للعجزية ولنظرية هيوم. و من المهم خصوصا ان نسجل راي ماركس حول العلاقة بين الحرية و الضرورة: "ليست الضرورة عمياء الا ما دامت غير مفهومة. الحرية هي فهم الضرورة"(انجلس. "ضد دوهرنغ") و هذا يعني، اذن، الاعتراف بمطابقة الطبيعة للقوانين الموضوعية، و تحول الضرورة الديالكتيكي الى حرية (كتحول "الشيء بذاته" وغير المدرك و لكنه قابل للادراك الى "شيء لنا"، تحول "جوهر الاشياء" الى "ظاهرات").

ان العيب الاساسي في المادية 'القديمة' و في جملتها مادية فورباخ (بالاحرى المادية "المبتذلة" عند بوخنر و فوغت و موليشوت) هو في نظر ماركس و انجلس: اولا– ان هذه المادية كانت "في اساسها ميكانيكية" و لم تكن لتاخذ بعين الاعتبار اخر ما توصلت اليه الكيمياء و البيولوجيا (و من المناسب ان نضيف اليها في ايامنا هذه النظرية الكهربائية للمادة). ثانيا – ان المادية القديمة لم تكن تاريخية و لا ديالكتيكية (كانت ميتافيزيقية بمعنى انها ضد الديالكتيكية) ولم تكن تطبق وجهة نظر التطور من جميع نواحيها على نحو منسجم محكم الحلقات الى النهاية. ثالثا – انها تفهم "جوهر الانسان" على نحو تجريدي لا بمثابة "مجموعة العلاقات الاجتماعية كافة" (التي يحددها

التاريخ على نحو ملموس). وهكذا لم تقم الا "بتفسير" العالم مع ان المقصود كان "تغييره" و بتعبير اخر ان المادية القديمة لم تكن تدرك شان "النشاط العملي الثوري".

الديالكتيك

لقد كان ماركس و انجلس يريان في ديالكتيك هيغل اوسع مذهب من مذاهب التطور و اوفرها مضمونا و اشدها عمقا و اثمن اكتسابا حققته الفلسفة الكلاسيكية الالمانية. و كانت كل صيغة اخرى لمبدأ التطور تتراءى لهما وحيدة الجانب فقيرة المضمون تشوه و تفسد السير الواقعي للتطور (الذي يتميز احيانا بقفزات و كوارث و ثورات) في الطبيعة و المجتمع. "اننا كلينا، ماركس وانا، كنا وحدنا تقريبا اللذين عملا لانقاذ الديالكتيك الواعي" (من المثالية بما فيها الهيغلية نفسها) "وذلك بادخاله في المفهوم المادي للطبيعة". "ان الطبيعة هي محك الاختبار، و ب ان نضيف ان علم الطبيعة الحديث قد اغنى الى اقصى حدود الغنى (كتب هذا قبل اكتشاف الراديوم و الالكترونات و تحول العناصر الخ.!) و لا يزال يضيف لوازم هذا الاختبار يوميا و بذلك اثبتت هذه العلوم ان الطبيعة تعمل في نهاية المطاف على نحو ديالكتيكي لا على نحو ميتافيزيقي".[22]

قال انجلس ايضا: "ان الفكرة الاساسية الكبرى التي تقول بان العالم لا يتالف من اشياء تامة الصنع بل هو مجموعة من العمليات يطرا فيها على الاشياء التي تبدو في الظاهر ثابتة و كذلك على انعكاساتها الذهنية في دماغنا، اي الافكار، تغير مستمر من الصيرورة و الفناء، ان هذه الفكرة الاساسية الكبرى قد نفذت على نحو عميق منذ هيغل في الادراك العام حتى انه لا يوجد من يعارضها في شكلها العام هذا. ولكن الاعتراف بهذه الفكرة كلاما شيء و تطبيقا في الواقع في كل حال من الاحوال و في كل ميدان من ميادين البحث شيء اخر". "ليس هناك من امر نهائي مطلق مقدس امام الفلسفة الديالكتيكية فيه ترى كل شيء و في كل شيء خاتم الهلاك المحتوم، و ليس ثمة شيء قادر على الصمود في وجهها غير الحركة التي لا تنقطع، حركة الصيرورة و الفناء، حركة التصاعد ابدا دون توقف من الادنى الى الاعلى. وهذه الفلسفة نفسها ليست الا مجرد انعكاس هذه الحركة في الدماغ المفكر". فالديالكتيك هو اذن في نظر ماركس علم القوانين العامة للحركة سواء في العالم الخارجي ام في الفكر البشري".[23]

ان هذا المظهر الثوري لفلسفة هيغل هو ما تبناه ماركس و طوره. فالمادية الديالكتيكية "لم

بنفي ماركس من فرنسا.

6/ رابطة العمال الالمان ببروكسل: اسسها ماركس وانجلز في اواخر اب 1847 من اجل تنوير وتثقيف العمال الالمان المقيمين في بلجيكا سياسيا ومن اجل ترويج افكار الشيوعية العلمية بينهم. بقيادة ماركس وانجلز وانصارهما غدت الرابطة مركزا علنيا لتوحيد البروليتاريين الثوريين الالمان في بلجيكا. انضمت خيرة عناصر الرابطة الى محفل عصبة الشيوعيين في بروكسل. بعد ثورة شباط البرجوازية في فرنسا في عام 1848 بفترة وجيزة توقف نشاط رابطة العمال الالمان ببروكسل نظرا لاعتقال ونفي اعضائها من قبل البوليس البلجيكي.

7/ الجريدة الالمانية –البروكسلية: اسسها المهاجرون السياسيون الالمان في بروكسل. صدرت من كانون الثاني 1847 الى شباط 1848. ابتداءا من ايلول 1847 اصبح ماركس وانجلز معاونين دائمين في الجريدة واثرا مباشرة في اتجاهها. باشراف ماركس وانجلز غدت الجريدة لسان حال عصبة الشيوعيين.

8/ الجريدة الرينانية الجديدة: صدرت يوميا في كولونيا بتحرير ماركس من اول حزيران 1848 الى 19 ايار 1849. كان انجلز عضوا في هيئة تحريرها.

9/ انتفاضة حزيران: انتفاضة باسلة قام بها عمال باريس من 23 الى 26 حزيران 1848. وقمعتها البرجوازية الفرنسية بضراوة خارقة. كانت هذه الانتفاضة اول حرب اهلية كبيرة في التاريخ بين البروليتاريا والبرجوازية.

10/ الجريدة الصليبية: هكذا اسميت الجريدة اليومية الالمانية (بسبب رسم الشعار اللاندفير أي الصليب في العنوان)، صدرت في برلين من حزيران 1848 حتى عام 1939. كانت لسان حال طغمة البلاط المعادية للثورة وطبقة اليونكر البروسيين.

11/ (الجريدة الرينانية الجديدة: عرض سياسي واقتصادي) مجلة لسان الحال النظري لعصبة الشيوعيين، اسسها ماركس وانجلز صدرت من كانون الاول 1849 الى تشرين ثاني 1850. صدر منها ستة اعداد فقط.

12/ بعد معارك طاحنة دامت اسبوعا كاملا قمعت القوات المسلحة الامبراطورية النمساوية في اول تشرين ثاني 1848 الانتفاضة الشعبية في فيينا واحتلت المدينة.

في تشرين الثاني –كانون الاول 1848 حدث في بروسيا انقلاب تلته الردة الرجعية. في اول تشرين الثاني جاءت الى الحكم وزارة معادية صراحة للثورة. وفي 9 تشرين الثاني نقل اجتماع

عنهما شأنا في ميدان دراسة النظام الاجتماعي الرأسمالي، وسيطرأ في الوقت نفسه تعديل جـذري على تلك الجوانب من الاقتصاد السياسي التي لم يتطرق اليـها المجلـد الاول. لنتمـن لمـاركس ان يتمكن في وقت غير بعيد من احالة هذا المجلد الى الطبع.

ــــــــــــــــــــــــــــ

كتبه انجلس في اواسط حزيران(يونيو) 1877.

صدر في روزنامة "Volks-Kalender" (فولكـس-كـالندر)-(تقويـم الشـعب) الصـادرة في براونشفيغ، عام 1878.

ـــ

الهوامش:

1/(الجريدة الرينانية في شؤون السياسة والتجارة والصناعة) جريدة يومية، صدرت في كولونيا من اول كانون الثاني 1842 الى 31آذار 1843. ابتداءا من تشرين الأول من السنة ذاتها اصبح احد محرريها.

2/**كارل ماركس**: ((مناقشات لاندتاغ الراين السادس (المقالة الاولى). المناقشات حول حرية الصحافة وحول نشر محاضر جمعية المراتب الطبقية))؛ ((مناقشات لاندتاغ الراين السادس(المقالة الثالثة). مناقشات حول القانون المتعلق بسرقة الغابات)). (راجع **كارل ماركس وفريدريك انجلس**. المؤلفات، الطبعة الروسية الثانية، المجلد1، ص ص 30-84 و 119-160). **الناشر**.

3/كان المستشار البوليسـي دوليشـال اول رقيـب علـى "Rheinische Zeitune" (الجريـدة الرينانية)؛ وهو ذاك الرقيب الذي شطب ذات مرة في "Kolnische Zeitung"" (جريدة كولونيا) اعلانا بترجمة (للكوميديا الالهية) لدانته بقلم فيلاليـث (الملـك يوهـان الساكسـوني فيمـا بعـد)، مسجلا الملاحظة التالية: ((لالزوم لتدبيج مهزلة من الامور الالهية)).

4/ الحولية الالمانية الفرنسية: صدرت باللغة الالمانية في باريس وبتحريـر مـاركس وروغـه. ولم يصدر منها غير عدد واحد مزدوج وذلك في شهر شباط 1844. وقد احتوى مؤلفات لمـاركس وانجلز تسجل نهائيا انتقالهما الى المادية والشيوعية. اما السبب الرئيسي لوقف اصدار المجلة فـهو الخلافات المبدئية بين ماركس وروغة الراديكالي البرجوازي.

5/ تحت ضغط الحكومة البروسية اصدرت الحكومة الفرنسية في 16 كانون الثاني 1845 امرا

تعد بحاجة الى فلسفة توضع فوق العلوم الاخرى" وان ما تبقى من الفلسفة القديمة هو "نظرية الفكر و قوانينه– المنطق الشكلي و الديالكتيك.[24] غير ان الديالكتيك حسب مفهوم ماركس كما هو حسب مفهوم هيغل يشمل ما يسمى اليوم بنظرية المعرفة او "العرفانية" التي يجب ان تعالج موضوعها من وجهة نظر تاريخية ايضا وذلك بان تدرس وتعمم منشا المعرفة وتطورها اي الانتقال من اللامعرفة الى المعرفة.

في ايامنا دخلت فكرة النمو فكرة التطور على نحو كلي تقريبا في الوعي الاجتماعي و لكن عن غير طريق فلسفة هيغل. بيد ان هذه الفكرة كما صاغها ماركس وانجلس بالاستناد الى هيغل هي اوسع جدا و اغنى جدا في محتواها من الفكرة الشائعة عن التطور. تطور يبدو كانه يستنسخ مراحل مقطوعة سابقا و لكن على نحو اخرو على درجة الرفع ("نفي النفي") تطور على نحو لولبي اذا صح التعبير لا على نحو خط مستقيم– تطور بقفزات و كوارث وثورات– "انقطاعات في التدرج" تحول الكمية الى كيفية – اندفاعات داخلية نحو التطور يثيرها التضاد و التصادم في القوى و الاتجاهات المتمايزة التي تعمل في جسم معين او في حدود ظاهرة معينة او في قلب مجتمع معين – تبعية متبادلة و صلة وثيقة لا يمكن فصمها بين جميع جوانب كل ظاهرة (والتاريخ يكشف دائما عن جوانب جديدة)، صلة تحدد مجرى الحركة الوحيد المشروع الكلي: هذه هي بعض مميزات الديالكتيك بوصفه مذهبا للتطور اغنى من المذهب الشائع. (راجع رسالة ماركس الى انجلس بتاريخ 8 كانون الثاني 1868 حيث يهزا من "سفسطات شتاين "المشدودة" التي من الحماقة خلطها بالديالكتيك المادي.)

المفهوم المادي للتاريخ

ادرك ماركس خلو المادية القديمة من المنطق و عدم اكتمالها و طابعها الوحيد الجانب. فاقتنع بانه يجب "جعل علم المجتمع منسجما مع الاساس المادي و اعادة بنائه استنادا الى هذا الاساس".[25] واذا كانت المادية بوجه عام تفسر الوعي بالكائن و ليس بالعكس فهي تتطلب عند تطبيقها على الحياة الاجتماعية للانسانية تفسير الوعي الاجتماعي بالكائن الاجتماعي. يقول ماركس: "ان التكنولوجيا تبرز اسلوب عمل الانسان تجاه الطبيعة اي العملية المباشرة لانتاج حياته و بالتالي الظروف الاجتماعية لحياته و الافكار او المفاهيم الفكرية التي تنجم عن هذه الظروف" ("راس المال" المجلد الاول).[26] وقد اعطى ماركس صيغة كاملة عن الموضوعات

الاساسية للمادية في تطبيقها على المجتمع البشري و على تاريخه و ذلك في مقدمة كتابه: "مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي" قال:

"ان الناس اثناء الانتاج الاجتماعي لحياتهم يقيمون فيما بينهم علاقات معينة ضرورية مستقلة عن ارادتهم. و تطابق علاقات الانتاج هذه درجة معينة من تطور قواهم المنتجة المادية.

و مجموع علاقات الانتاج هذه يؤلف البناء الاقتصادي للمجتمع اي الاساس الواقعي الذي يقوم عليه بناء فوقي حقوقي و سياسي و تطابقه اشكال معينة من الوعي الاجتماعي. ان اسلوب انتاج الحياة المادية يشترط تفاعل الحياة الاجتماعي و السياسي و الفكري بصورة عامة. فليس ادراك الناس هو الذي يحدد معيشتهم بل على العكس من ذلك معيشتهم الاجتماعية هي التي تحدد ادراكهم. و عندما تبلغ قوى المجتمع المنتجة المادية درجة معينة من تطورها تدخل في تناقض مع علاقات الانتاج الموجودة او مع علاقات الملكية – و ليست هذه سوى التعبير الحقيقي لتلك – التي كانت الى ذلك الحين تتطور ضمنها. فبعد ما كانت هذه العلاقات اشكالا لتطور القوى المنتجة تصبح قيودا لهذه القوى. و عندئذ ينفتح عهد الثورة الاجتماعية. و مع تغير الاساس الاقتصادي يحدث انقلاب في كل البناء الفوقي الهائل بهذا الحد او ذاك من السرعة. وعند دراسة هذه الانقلابات ينبغي دائما التمييز بين الانقلاب المادي لشروط الانتاج الاقتصادية – هذا الانقلاب الذي يحدد بدقة العلوم الطبيعية – وبين الاشكال الحقوقية و السياسية و الدينية و الفنية و الفلسفية او بكلمة مختصرة الاشكال الفكرية التي يتصور فيها الناس هذا النزاع ويكافحونه.

فكما انه لا يمكن الحكم على فرد وفقا للفكرة التي لديه عن نفسه كذلك لا يمكن الحكم على عهد انقلاب كهذا وفقا لوعيه. فينبغي تفسير هذا الوعي بتناقضات الحياة المادية و بالنزاع القائم بين قوى المجتمع المنتجة و علاقات الانتاج"..." ان اساليب الانتاج الاسلوب الاسيوي و القديم و الاقطاعي و البرجوازي الحديث مرسومة بخطوطها الكبرى يمكن اعتبارها بمثابة عهود متصاعدة من التكون الاجتماعي الاقتصادي".[27](" راجع الصيغة الموجزة التي يعطيها ماركس في رسالته الى المجلس بتاريخ 7 تموز 1866: "نظريتنا حول تحديد تنظيم العمل بواسطة وسائل الانتاج").

ان اكتشاف المفهوم المادي عن التاريخ او بتعبير ادق تطبيق و توسيع المادية بداب و انسجام الى النهاية حتى تشمل ميدان الظاهرات الاجتماعية قد قضى على عيبين رئيسيين في النظريات التاريخية السابقة: اولا: لم تكن هذه النظريات تاخذ بعين الاعتبار، في احسن الحالات، غير

قوة العمل هذه خلال يوم او شهر او سنة. لنفترض انه ينبغي ست ساعات عمل او –والامران سيان –ان العمل المضمن فيها يوازي ست ساعات عمل، لاجل انتاج وسائل عيش العامل ليوم واحد؛ ففي هذه الحال، ستجد قيمة قوة العمل في سياق يوم واحد تعبيرا عنها في مبلغ النقود التي تجسد كذلك ست ساعات عمل. ثم لنفترض ان الرأسمالي الذي يقدم للعامل عملا يدفع له هذا المبلغ، أي كامل قيمة قوة عمله. فاذا اشتغل العامل، على هذا النحو، ست ساعات في اليوم لاجل الراسمالي، لعوّض تماما على الرأسمالي النفقات التي تحملها، أي ست ساعات عمل مقابل ست ساعات عمل، وفي هذه الحال، لايحصل الرأسمالي بالطبع على أي شيء. ولهذا يتصور الراسمالي الامر بصورة مختلفة تماما. فهو يقول: انا اشتريت قوة هذا العامل لا لست ساعات بل ليوم كامل؛ ولهذا يجبر الرأسمالي العامل على العمل، 8ساعات او 10 او 12 أو 14، أو اكثر، حسب الظروف، وهكذا يكون نتاج الساعة السابعة والثامنة والساعات التالية نتاج عمل غير مدفوع الاجر، ويمضي مباشرة الى جيب الرأسمالي. وعليه، لا يجدد العامل في خدمة الرأسمالي قيمة قوة عمله التي دفع الرأسمالي اجرها وحسب، بل ينتج ايضا، علاوة على ذلك، **قيمة زائدة** يستأثر بها الرأسمالي في البدء، ثم توزَع فيما بعد، بموجب قوانين اقتصادية معينة، بين طبقة الرأسماليين برمتها، وتؤلف ذلك المصدر الذي ينجم منه الريع العقاري والربح وتراكم الرأسمال، –وبكلمة، جميع تلك الثروات التي تستهلكها او تكدسها الطبقات غير العاملة. ولكنه اقيم البرهان بذلك على ان اثراء الرأسماليين المعاصرين يتحقق بواسطة امتلاك عمل غير مدفوع الاجر يقوم به آخرون، بدرجة لاتقل عما كان عليه الحال عند مالكي العبيد او عند الاقطاعيين الذي كانوا يستثمرون عمل الاقنان، وعلى ان جميع اشكال الاستثمار هذه لا يختلف بعضها عن بعض الا بالطريقة التي يجري بها امتلاك العمل غير المدفوع الاجر. ولكن بفضل هذا، تحطَم الاساس الاخير الذي تعتمد عليه الطبقات المالكة للتشدق بالأقوال المنافقة الزاعمة ان النظام الاجتماعي الحالي يسوده القانون والعدل والمساواة في الحقوق والواجبات والتوافق العام بين المصالح، وبفضل هذا انفضح المجتمع البرجوازي الحالي بدرجة لاتقل عن درجة انفضاح المجتمع السابق، انفضح بوصفه مؤسسة كبيرة جدا لاستثمار الاغلبية الهائلة من الشعب من قبل اقلية ضئيلة تقل بأستمرار.

على هذين الاساسين الهامين، ترتكز الاشتراكية العلمية المعاصرة. وفي المجلد الثاني من ((رأس المال))، سيجري تطوير هذين الاكتشافين العلميين وغيرهما من الاكتشافات العلمية التي لاتقل

الى سادة ومسودين، ومستثمِرين ومستثمَرين يزول، في اكثر البلدان تقدما على الاقل نتيجة لنمو القوى المنتجة نمواً هائلا في الوقت الحاضر؛ وبان البرجوازية الكبيرة السائدة قد لعبت دورها التاريخي، وبانه لم يعد في مقدورها ان تقود المجتمع، وليس هذا وحسب، بل بلغ بها الامر الى حد انها امست كابحا لاطراد نمو الانتاج، كما تبين ذلك الازمات التجارية، ولاسيما الانهيار الكبير الاخير –وضعف الصناعة في جميع البلدان؛ وبأن قيادة التاريخ قد انتقلت الان الى البروليتاريا، الى الطبقة التي لاتستطيع ان تحرر نفسها، بحكم جميع شروط وضعها الاجتماعي، الا بالقضاء على كل سيادة طبقية وكل عبودية وكل استثمار على العموم؛ وبان القوى المنتجة الاجتماعية، التي تنامت الى حد ان البرجوازية لم تعد تستطيع السيطرة عليها، لا تفعل غير ان تنتظر ان تمتلكها البروليتاريا المتحدة وتقيم نظاما يوفر لكل عضو من اعضاء المجتمع، لا فرصة الاشتراك في الانتاج وحسب، بل ايضا فرصة الاشتراك في توزيع وادارة الثروات الاجتماعية، نظاما يزيد قوى المجتمع المنتوجة والمنتوجات التي تصنعها، ويكثرها بتنظيم كل الانتاج تنظيما منهاجيا، الى حد يضمن لكل فرد تلبية حاجاته المعقولة بمقادير متعاظمة على الدوام.

اما الاكتشاف الهام الثاني الذي حققه ماركس، فيلخص في توضيح العلاقة بين الرأسمال والعمل توضيحا وافيا نهائيا، وبتعبير آخر، في تبيان الطريقة التي يتحقق بها استثمار العامل من قبل الرأسمالي في المجتمع الحالي، في ظل اسلوب الانتاج الرأسمالي القائم. فمنذ ان تقدم الاقتصاد السياسي بالموضوعة القائلة ان العمل هو مصدر كل ثروة وكل قيمة، كان لابد ان ينهض السؤال التالي: كيف يمكن التوفيق بين هذا والامر التالي وهو ان العامل الاجير لايحصل على كل مقدار القيمة التي ينتجها بعمله، ويجب عليه ان يعطي الراسمالي قسما منها؟ عبثا حاول الاقتصاديون البرجوازيون وعبثا حاول الاشتراكيون ان يعطوا جوابا معللا علميا عن هذا السؤال، الى ان جاء ماركس اخيرا بحله. هذا الحل يتلخص فيما يلي. ان اسلوب الانتاج الرأسمالي الحالي يفترض وجود طبقتين اجتماعيتين هما من جهة، الراسماليون الذين يمكلون وسائل الانتاج ووسائل العيش، ومن جهة اخرى، البروليتاريون المحرومون من هذه وتلك، والذين لايملكون سوى بضاعة واحدة لاجل البيع، هي قوة عملهم؛ وهم مضطرون الى بيع قوة عملهم لكي يحصلوا على وسائل العيش الضرورية. ولكن قيمة البضاعة تحدد بكمية العمل الضروري اجتماعيا، المضمن في انتاجها، وبالتالي في تجديد انتاجها؛ ولذا تحدد قيمة قوة عمل انسان متوسط في يوم او شهر او سنة بكمية العمل المضمن في مجمل وسائل العيش الضرورية الاجل الحفاظ على

الدوافع، دون ان تدرك القوانين الموضوعية التي تسير تطور نظام العلاقات الاجتماعية، دون ان ترى جذور هذه العلاقات في درجة تطور الانتاج المادي. ثانيا: كانت النظريات السابقة تهمل على وجه الضبط عمل جماهير السكان بينما مكنت المادية التاريخية لاول مرة من دراسة الظروف الاجتماعية لحياة الجماهير و من دراسة تغيرات هذه الظروف بدقة العلوم الطبيعية. لقد كان "علم الاجتماع" و علم التاريخ قبل ماركس يكدسان في احسن الحالات وقائع خام مجموعة كيفما اتفق و يعرضان بعض الجوانب من حركة تطور التاريخ. لقد شقت الماركسية الطريق امام دراسة واسعة شاملة لعملية نشوء تشكيلات المجتمع الاقتصادية و تطورها و انهيارها و ذلك بتحليلها مجموعة الميول المتناقضة و ردها الى ظروف المعيشة و الانتاج الواضحة المعالم لمختلف طبقات المجتمع و بابعادها اختيار الافكار "القائدة" او تأويلها على نحو ذاتي و اعتباطي و يكشفها عن جذور جميع الافكار و جميع الميول المتباينة في اوضاع القوى المنتجة المادية دون استثناء. ان الناس هم صانعوا تاريخهم و لكن ما الذي يحدد دوافعهم و خصوصا دوافع الجماهير البشرية؟ و ما هو سبب نزاعات الافكار و المطامح المتضادة؟ وماذا يمثل مجموع هذه النزاعات في مجمل المجتمعات البشرية و ما هي الشروط الموضوعية لانتاج الحياة المادية التي يقوم عليها اساس كل نشاط الناس التاريخي؟ و ماهو قانون تطور هذه الشروط؟ ان ماركس قد اعار انتباهه لهذه المسائل و رسم الطريق لدراسة علمية للتاريخ بوصفه حركة تطور واحدة تسير وفق قوانين معينة رغم تنوعها العجيب و رغم جميع تناقضاتها.

الصراع الطبقي

من المعلوم انه في كل مجتمع تتصادم مطامح البعض مع مطامح البعض الاخر و ان الحياة الاجتماعية مليئة بالتناقضات، و ان التاريخ يكشف لنا عن الصراع الذي بين الشعوب و المجتمعات، كما يقوم داخل الشعوب و المجتمعات نفسها، و انه يبين لنا ايضا مراحل متعاقبة من الثورة و الرجعية، من السلم و الحروب، من الركود و التقدم السريع او الانحطاط. ان الماركسية قد رسمت النهج الموجه الذي يتيح اكتشاف وجود القوانين في هذا التعقيد و التشوش الظاهر و نعني بهذا نظرية الصراع الطبقي. فقط دراسة مجمل المطامح لدى جميع اعضاء مجتمع ما او عدد من المجتمعات تسمح بتحديد نتيجة هذه المطامح تحديدا علميا. هذا مع العلم ان المطامح المتناقضة

يولدها تباين الاوضاع و شروط الحياة لدى الطبقات التي ينقسم اليها كل مجتمع. يقول ماركس في "البيان الشيوعي": "ان تاريخ كل مجتمع الى يومنا هذا (ثم يضيف انجلس فيما بعد: ما عدى المشاعية البدائية) لم يكن سوى تاريخ صراع بين الطبقات. فالحر و العبد، و النبيل و العامي، و السيد الاقطاعي و القن، و المعلم و الصانع، اي باختصار، المضطهدون و المضطهدين، كانوا في تعارض دائم و كانت بينهم حرب مستمرة، تارة ظاهرة، و تارة مستترة، حرب كانت تنتهي دائما اما بانقلاب ثوري يشمل المجتمع باسره و اما بانهيار الطبقتين معا...اما المجتمع البرجوازي الحديث الذي خرج من احشاء المجتمع الاقطاعي الهالك فانه لم يقض على التناقضات بين الطبقات بل اقام طبقات جديدة محل القديمة و اوجد ظروفا جديدة للاضطهاد واشكالا جديدة للنضال بدلا من القديمة. الا ان ما يميز عصرنا الحاضر، عصر البرجوازية، هو انه جعل التناحر الطبقي اكثر بساطة. فان المجتمع اخذ بالانقسام، اكثر فاكثر، الى معسكرين فسيحين متعارضين، الى طبقتين كبيرتين العداء بينهما مباشر: هما البرجوازية و البروليتاريا". ومنذ الثورة الفرنسية الكبرى كشف تاريخ اوروبا في عدد من البلدان على نحو بديهي خاص عن السبب الحقيقي للاحداث وهو صراع الطبقات. فمنذ عهد عودة الملكية[28] ظهر في فرنسا عدد من المؤرخين (تييري و غيزو و مينيه و تيير) الذين كانوا مجبرين عند تلخيصهم لما كان يحدث ان يعترفوا بان الصراع الطبقي موجود وانه المفتاح الذي يتيح فهم كل تاريخ فرنسا. ولكن المرحلة الحديثة الاخيرة، مرحلة انتصار البرجوازية التام، و المؤسسات التمثيلية و الاقتراع الموسع (ان لم يكن العام)، مرحلة الصحافة اليومية الزهيدة الثمن، التي تتغلغل بين الجماهير الخ. هذه المرحلة قد اثبتت بمزيد من الجلاء ايضا (ولو احيانا على نحو وحيد الجانب و "سلمي" و "دستوري") ان الصراع الطبقي هو محرك الاحداث. ان المقتطف التالي من "البيان الشيوعي" يبين لنا ما طلبه ماركس من علم الاجتماع من وجهة نظر التحليل الموضوعي لاوضاع كل طبقة من طبقات المجتمع الحديث بالارتباط مع تحليل تطور هذه الطبقة: "وليس بين جميع الطبقات التي تقف الان امام البرجوازية وجها لوجه الا طبقة واحدة ثورية حقا هي البروليتاريا. ان جميع الطبقات الاخرى تنحط و تنقرض في النهاية مع نمو الصناعة الكبرى اما البروليتاريا فهي – خلافا لذلك – اخص واساس منتجات هذه الصناعة. ان الشريحة السفلى من الطبقة المتوسطة و صغار الصناعيين و الباعة و الحرفيين و الفلاحين تحارب البرجوازية من اجل الحفاظ على وجودها بوصفها فئات

الكبيرة التي غدت ممكنة بفضل اختراعات القرن الماضي، ولاسيما بفضل اختراع الآلة البخارية، اما الصناعة الكبيرة فقد اثرت تأثيرا معاكسا في التجارة، مزحزحة العمل اليدوي القديم في البلدان المتأخرة، وخالقة في البلدان الاكثر تطورا وسائل جديدة عصرية للمواصلات: البواخر والسكك الحديدية والتلغراف الكهربائي. وعلى هذا النحو اخذت البرجوازية تركز اكثر فأكثر في يدها الثروات الاجتماعية والقوة الاجتماعية، رغم انها ظلت طويلا محرومة من السلطة السياسية التي بقيت في ايدي النبلاء وفي يد السلطة الملكية المعتمدة على النبلاء. ولكنها في درجة معينة من التطور، –في فرنسا منذ الثورة الكبرى، –ظفر ايضا بالسلطة السياسية واصبحت بدورها الطبقة السائدة حيال البروليتاريا والفلاحين الصغار. ومن وجهة النظر هذه –وطبعا بعد الاطلاع الكافي على اوضاع المجتمع الاقتصادية في المرحلة المعينة(وهذا غير متوفر اطلاقا عند مؤرخينا الاختصاصيين) –تفسر جميع الظاهرات التاريخية بأبسط نحو، كما تفسِّر ايضا تصورات وافكار كل مرحلة تاريخية معينة، بشكل بسيط للغاية، بشروط الحياة الاقتصادية وبالعلاقات الاجتماعية والسياسية التي تشترطها هذه الشروط في هذه المرحلة. وللمرة الاولى اقيم التاريخ على اساسه الفعلي. وهذا الواقع الجلي، ولكن الذي غاب عن البال كليا حتى الان، وهو انه يجب على الناس باديء ذي بدء ان يأكلوا ويشربوا ويملكوا مسكنا ويلبسوا وانه يجب عليهم بالتالي ان يشتغلوا قبل ان يصبح في امكانهم النضال من اجل السيادة والاهتمام بالسياسة والدين والفلسفة، و...الخ، هذا الواقع البيَن تم الآن، في آخر المطاف، الاعتراف بحقوقه التاريخية.

ان هذا المفهوم الجديد عن التاريخ قد اتسم بأكبر قدر من الاهمية بالنسبة للنظرة الاشتراكية الى العالم. فقد اثبت ان التاريخ كله يسير في الوقت الحاضر ايضا في طريق التناحر والنضال بين الطبقات، وانه وجدت على الدوام طبقات سائدة ومسودة، مستثمرة ومستثمرة، وان الاغلبية الهائلة من البشر كان دائما من نصيبها العمل القاسي والعيشة الحقيرة. لماذا؟ بكل بساطة لان الانتاج كان ضعيف النمو في جميع الدرجات السابقة من تطور البشرية، الى حد انه لم يكن بوسع التطور التاريخي ان يتحقق الا في هذا الشكل التناحري، وان التقدم التاريخي، كان يمثله برمته وكليته نشاط اقلية مميزة ضئيلة، بينما كان السواد الاعظم محكوما عليه بكسب وسائل عيشه الزهيدة، فضلا عن العمل دائما على زيادة ثروات المميزين. ولكن هذا المفهوم ذاته عن التاريخ، الذي يفسر بنحو طبيعي ومعقول السيادة الطبقية القائمة حتى الان والتي لايمكن تفسيرها على شكل آخر الا بارادة الناس الشريرة، يؤدي ايضا الى الاقتناع بان الاساس الاخير لانقسام الناس

نتناول الآن هنا اثنين فقط.

اولهما، الانقلاب الذي احدثه في كامل مفهوم التاريخ العالمي. ففي اساس جميع النظرات السابقة الى التأريخ، كانت تقوم الفكرة القائلة انه ينبغي في آخر تحليل التفتيش عن سبب جميع التغيرات التاريخية في افكار الناس المتغيرة وان التغيرات السياسية هي بين جميع التغيرات التاريخية، التغيرات الاهم، التغيرات التي تحدد التاريخ كله. اما من اين تظهر الافكار عند الناس وماهي الاسباب المحركة للتغيرات السياسية، فان هذا لم يكن موضع تفكير عميق، فقط في مدرسة المؤرخين الفرنسيين الحديثة، وجزئيا في مدرسة المؤرخين الانجليز، نشأ الاعتقاد ان نضال البرجوازية النامية ضد النبلاء الاقطاعيين في سبيل السيادة الاجتماعية والسياسية هو القوة المحركة للتاريخ الاوروبي، على الاقل منذ القرون الوسطى. اما ماركس فقد برهن ان تاريخ البشرية السابق كله هو تاريخ النضال بين الطبقات، وان الكلام في كل النضال السياسي المتنوع والمعقد قد دار دائما على وجه الضبط حول السيادة الاجتماعية والسياسية لهذه او تلك من طبقات المجتمع، حول احتفاظ الطبقات القديمة بالسيادة، حول توصل الطبقات الجديدة المتصاعدة الى السيادة. ولكن بفعل أي شيء تظهر هذه الطبقات وتوجد؟ بفعل الظروف المادية المحسوسة بشكل طبيعي صرف، المتوفرة كل مرة، والتي ينتج ويبادل المجتمع في ظلها، وفي كل عصر بعينه، وسائل العيش الضرورية. فان السيادة الاقطاعية في القرون الوسطى كانت تعتمد على اقتصاد المشاعات الفلاحية الصغيرة التي تكفي نفسها بنفسها والتي كانت تنتج بنفسها قرابة جميع الوسائل الضرورية لاستهلاكها، ولم تكن تعرف تقريبا التبادل والتي كان النبلاء ذوو النزعة الحربية يؤمنون لها الحماية من الاعداء الخارجيين ويؤمنون لها الصلة القومية او، على الاقل، الصلة السياسية. وعندما انبثقت المدن وانبثقت معها الصناعة الحرفية المحصورة وانبثق التداول التجاري داخل البلد في باديء الامر، ثم على الصعيد العالمي، عند ذاك تطورت البرجوازية المدينية التي سبق ان ظفرت لنفسها في القرون الوسطى، في غمرة النضال ضد النبلاء، بمكان في النظام الاقطاعي بوصفها هي ايضا فئة مميزة. ولكن البرجوازية كسبت منذ اكتشاف الاراضي خارج اوروبا، منذ اوساط القرن الخامس عشر، ميدانا ارحب بكثير لاجل النشاط التجاري وكسبت بالتالي حافزا جديدا لاجل انماء صناعتها. فاذا الحرفة في اهم الفروع تزحزحها المانيفاكتورة التي غدت مصنعية من حيث طابعها، واذا المانيفاكتورة بدورها تزحزحها الصناعة

متوسطة. فيه ليست اذن ثورية بل محافظة و اكثر من محافظة ايضا انها رجعية. اذ انها تريد ان تدور عجلة التاريخ الى الوراء. وان حدث و ان كانت ثورية فذلك لانها في حالة انتقال الى صفوف البروليتاريا و بذلك لا تدافع عن مصالحها الآنية بل عن مصالحها المستقبلية وهي تتخلى عن وجهة نظرها الخاصة لتتخذ لنفسها و جهة نظر البروليتاريا". و في جملة من المؤلفات التاريخية اعطى ماركس امثلة ساطعة و عميقة عن علم التاريخ المادي و عن تحليل ظروف كل طبقة بذاتها و احيانا ظروف مختلف الجماعات و الفئات في الطبقة الواحدة و بين على نحو ساطع لماذا و كيف "ان كل نضال طبقي هو نضال سياسي".[29] ان المقطع الذي استشهدنا به انفا يبين بوضوح كم هي معقدة شبكة العلاقات الاجتماعية و الدرجات الانتقالية بين طبقة و اخرى و بين الماضي و المستقبل التي يحللها ماركس ليظهر حاصل كل التطور التاريخي.

ان نظرية ماركس تجد تأكيدها و تطبيقها الاكثر عمقا و شمولا و تفصيلا في مذهبه الاقتصادي.

مذهب ماركس الاقتصادي

يقول ماركس في مقدمة كتابه "راس المال": " ان الهدف النهائي لهذا الكتاب هو ان يكشف عن القانون ا الاقتصادي لحركة المجتمع الحديث" اي المجتمع الراسمالي البرجوازي. فدراسة علاقات الانتاج في هذا المجتمع المحدد تاريخيا من حيث ولادة هذه العلاقات و تطورها و زوالها ذلك هو مضمون مذهب ماركس الاقتصادي. ان الشيء السائد في المجتمع الراسمالي هو انتاج البضائع. و لهذا يبدا تحليل ماركس بتحليل البضاعة.

القيمة

البضاعة هي بالدرجة الاولى شيء يسد حاجة من حاجات الانسان. و هي بالدرحة الثانية شيء يمكن مبادلته بشيء اخر. ان منفعة شيء ما تعطيه قيمة استعمالية. اما القيمة التبادلية– او القيمة باختصار– فهي، اولا، العلاقة، النسبة، في مبادلة عدد من القيم الاستعمالية من نوع ما بعدد من القيم الاستعمالية من نوع اخر. ان التجربة اليومية تبين لنا ان الملايين و المليارات من مثل هذه المبادلات تقيم دون انقطاع علاقات من التعادل بين القيم الاستعمالية الاكثر تنوعا و

الاكثر تباينا. فما هو العنصر المشترك بين هذه الاشياء المختلفة التي يعادل بعضها ببعض باستمرار في نظام من العلاقات الاجتماعية؟ ان العنصر المشترك بينها هو كونها نتاجات عمل. فعندما يتبادل الناس منتجاتهم يعادلون بين انواع العمل الاكثر تباينا. ان انتاج البضائع هو نظام من العلاقات الاجتماعية يخلق فيه شتى المنتجين منتجات متنوعة (التقسيم الاجتماعي للعمل) ويعادلون بينها عند التبادل. و بالتالي ان العنصر المشترك بين جميع البضائع ليس هو العمل في فرع معين من الانتاج و ليس هو عملا من نوع خاص، بل هو العمل الانساني المجرد، العمل الانساني بوجه عام. ففي مجتمع معين تؤلف كل قوة العمل الممثلة في مجموع قيم كل البضائع قوة عمل انساني واحدة موحدة. و الدليل على ذلك المليارات من امثلة التبادل. وهكذا فكل بضاعة مأخوذة بمفردها لا تمثل سوى جزء ما من وقت العمل الضروري اجتماعيا. ان كمية القيمة تحدد بقيمة العمل الضروري اجتماعيا او بوقت العمل الضروري اجتماعيا لانتاج بضاعة معينة. اي قيمة استعمالية معينة. "ان المنتجين حين يعتبرون منتجاتهم المختلفة متساوية عند تبادلها يقرون بذلك ان ان اعمالهم المختلفة متساوية و هم لا يدركون لا يدركون ذلك و لكنهم يفعلونه". لقد قال اقتصادي قديم: ان القيمة هي العلاقة بين شخصين. وكان عليه ان يضيف بكل بساطة الى قوله هذا: علاقة مغلفة بغلاف مادي. ذلك انه لا يمكن فهم القيمة الا بالاستناد الى مجمل علاقات الانتاج الاجتماعية لتشكيلة تاريخية معينة اي العلاقات التي تظهر عند التبادل هذه الظاهرة الجماهيرية التي تتكرر مليارات المرات. "ان البضائع بوصفها قيما ليست الا كميات محدودة من وقت العمل المتجمد" ("مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي"). و بعد تحليل مفصل للصفة المزدوجة للعمل المجسد في البضائع ينتقل ماركس الى تحليل اشكال القيمة و العملة (النقد). و المهمة الرئيسية التي يضعها نصب عينيه اذ ذاك هي ان يبحث عن منشا الشكل النقدي للقيمة و ان يدرس التفاعل التاريخي لتطور التبادل ابتداء من اعمال التبادل الفردية و العرضية ("شكل بسيط منفرد و طارئ للقيمة": كمية معينة من بضاعة ما تبادل مقابل كمية معينة من بضاعة اخرى) حتى الشكل العام للقيمة عندما يبادل عدد من البضائع المختلفة ببضاعة واحدة معينة، حتى الشكل النقدي للقيمة حيث يصبح الذهب بمثابة تلك البضاعة المعينة، بمثابة المعادل العام. ان النقد بوصفه النتاج الاعلى لتطور التبادل و انتاج البضائع يطمس، يخفي، الصفة الاجتماعية للعمل الفردي اي العلاقة الاجتماعية بين المنتجين المنفردين الذين يرتبطون ببعضهم البعض بواسطة السوق. ويخضع ماركس لتحليل مفصل الى اقصى حد شتى وظائف النقد. و من المهم

الاممية يعني كتابة تاريخ هذه الجمعية ذاتها التي لاتزال فضلا عن ذلك حية في ذاكرة العمال الاوروبيين.

ان سقوط كومونة باريس[22] قد خلق للاممية وضعا لايطاق. فقد برزت الاممية في مقدمة التاريخ الاوروبي في وقت قضي فيه في كل مكان بالنسبة لها على امكانية القيام بأي نشاط عملي ناجح، والاحداث التي رفعتها الى منزلة الدولة الكبرى السابعة لم تكن تسمح لها في الوقت نفسه بتعبئة واستخدام قواتها القتالية الا بتعريض الحركة العمالية لخطر الهزيمة الاكيدة والقمع الاكيد لعقود كاملة من السنين. ناهيك بأنه كانت تتقدم من مختلف الجهات عناصر حاولت ان تستغل ذيوع صيت الجمعية المتعاظم بفائق السرعة لاجل ارضاء غرورها الشخصي أو مطامعها الشخصية، دون ان تدرك او تأخذ بعين الاعتبار وضع الاممية الحقيقي. كان ينبغي اتخاذ قرار بطولي، ومن جديد كان ماركس بالذات هو الذي اتخذه وحمل مؤتمر لاهاي على اقراره. فبقرار علني امام الملأ رفعت الاممية عن نفسها كل مسؤولية عن تصرفات الباكونيين الذي كانوا مركز هذه العناصر الطائشة والقذرة؛ وفيما بعد، انسحبت الاممية مؤقتا من الحلبة، واتخذت قرارا بنقل المجلس العام الى اميركا، وذلك بسبب من الرجعية الشاملة التي جعلت من المستحيل عليها ان تستجيب للمطالب المرتفعة المطروحة امها وان تواصل نشاطها بكل مداه الا ببذل جملة من التضحيات كان لابد لها ان تستنزف دماء الحركة العمالية. وقد بينت الاحداث اللاحقة كل صحة هذا القرار الذي تعرض في حينه وفيما بعد للتنديد والشجب. فمن جهة وضع حد لكل محاولة للقيام باسم الاممية بفتن عقيمة؛ ومن جهة اخرى، بينت الصلة الوثيقة المتصلة بين الاحزاب العمالية الاشتراكية من مختلف البلدان او الوعي الذي ايقظته الاممية، وعي تضامن ووحدة مصالح البروليتاريا من جميع البلدان، يستطيع ان يشق لنفسه طريقا حتى بدون اتحاد امي رسمي من شأن عراه ان تتحول في الوقت الحاضر الى قيود.

بعد مؤتمر لاهاي توفر في آخر الامر لماركس الهدوء والوقت الحر لكي يعكف من جديد على عمله النظري، ويمكن الامل بانه سيتوفق خلال حقبة غير طويلة جدا في طبع المجلد الثاني من (رأس المال).

ومن بين الاكتشافات الهامة العديدة التي سجل بها ماركس اسمه في تأريخ العلم، يمكننا ان

ستار الحياد ان تصطاد السمك في الماء العكر. وفضلا عن ذلك، كان لابد من النضال أيضا ضد السيد كارل فوغت الذي كان يتقاضى راتبا من لويس نابليون ويحرض، بناء على تكليف من الامير نابليون (بلون–بلون) في صالح الحياد وحتى في سبيل التعاطف من جانب المانيا، فقد صبّ فوغت على ماركس سيولا من احقر الاختلافات والافتراءات البيّنة الكذب، فرد عليه ماركس بكتاب ((السيد فوغت)) (لندن، عام 1860) وفيه فضح فوغت وسائر السادة من الزمرة البونابرتية الديموقراطية المزعومة، اتهم فوغت، استنادا الى معطيات داخلية وخارجية على السواء بأن امبراطورية كانون الاول قد اشترته. وبعد عشرة أعوام بالضبط، تأكدت صحة هذه التهمة: ففي قائمة العملاء البونابرتيين التي وجدت في عام 1870 في قصر التويلري[20]، والتي نشرتها حكومة ايلول(سبتمبر)[21]، ورد تحت الحرف المناسب: ((فوغت – في آب (اغسطس) 1859، اعطي 40000 فرنك)).

واخيرا ظهر في هامبورغ عام 1867 ((رأس المال. نقد الاقتصاد السياسي، المجلد الاول))، وهي المؤلف الرئيسي الذي كتبه ماركس والذي عرض فيه اسس نظراته الاقتصادية والاشتراكية. وكذلك اسس انتقاده للمجتمع القائم، ولاسلوب الانتاج الرأسمالي وعواقبه، في عام 1872، صدرت الطبعة الثانية من هذا المؤلف الذي شكل عهدا. وفي الوقت الحاضر، يعمل المؤلِف على تنقيح المجلد الثاني.

وفي هذه الاثناء، كانت الحركة العمالية في مختلف بلدان اوروبا قد قويت من جديد الى حد انه توفرت لماركس امكانية التفكير بتحقيق امنيته الحميمة، وهي تأسيس جمعية للعمال تشمل اكثر البلدان تقدما في اوروبا واميركا وتمثل لحمها ودمها، اذا جاز القول، الطابع العالمي للحركة الاشتراكية سواء في عيون العمال انفسهم أم في عيون البرجوازية والحكومات، لما فيه فرح البروليتاريا وتوطدها، ولما فيه ذعر اعدائها. وان الاجتماع الشعبي الذي عقد في 28ايلول (سبتمبر) 1864 في قاعة سانت مارتينس بلندن، عاطفا وتضامنا مع بولينا التي كانت روسيا قد قمعتها للتو من جديد، امّن الفرصة لتقديم هذا الاقتراح، فقبل بحماسة. وتأسست **جمعية الشغيلة العالمية** (الاممية الاولى)؛ وانتخب في الاجتماع المجلس العام المؤقت، ومقره في لندن، مع العلم ان ماركس كان روح هذا المجلس وكذلك روح جميع المجالس العامة التالية حتى مؤتمر لاهاي[21]. فهو الذي وضع تقريبا جميع الوثائق التي اصدرها مجلس الاممية العام، ابتداء من البيان التأسيسي في عام 1864 حتى النداء حول الحرب الاهلية في فرنسا عام 1871. ان وصف نشاط ماركس في

الملاحظة هنا ايضا (كما في جميع الفصول الاولى من كتاب "راس المال") ان الشكل المجرد للعرض الذي يبدو احيانا استدلاليا فقط يعرض في الواقع مصادر وافرة الغنى حول تاريخ تطور التبادل و انتاج البضائع. "ان النقد يفترض مستوى معينا من التبادل البضاعي. ان شتى اشكال النقد، بوصفه معادلا بسيطا، ووسيلة للتداول، ووسيلة للدفع، و كنزا مخزونا، و نقدا عالميا – تدل بالمقارنة بين تفوق وظيفة على اخرى على مراحل مختلفة جدا من الانتاج الاجتماعي" ("راس المال"، المجلد الاول).

القيمة الزائدة

في درجة ما من تطور انتاج البضائع يتحول النقد الى راس مال. لقد كانت صيغة تداول البضائع: ب (بضاعة) – ن (نقد) – ب (بضاعة)، اي بيع بضاعة في سبيل شراء غيرها. اما صيغة راس المال العامة فهي بالعكس: ن – ب – ن – اي شراء في سبيل بيع (مع ربح). ان هذه الزيادة في القيمة الاولى للنقد الذي وضع قيد التداول هي ما يسميه ماركس "القيمة الزائدة". و "زيادة" المال هذه في التداول الراسمالي واقع معروف لدى الجميع. ان هذه "الزيادة" بعينها هي التي تحول المال الى راسمال بوصفه علاقة انتاج اجتماعية خاصة محددة تاريخيا. و لا يمكن للقيمة الزائدة ان تنجم عن تداول البضائع لان هذا التداول لا يعرف سوى تبادل اشياء متعادلة، و لا يمكن لها ايضا ان تنجم عن ارتفاع الاسعار لان الخسائر و الارباح لدى كل من الشارين و البائعين تتوازن، و الحال ان الامر يتعلق بظاهرة اجتماعية وسطية و معممة لا بظاهرة افرادية. فمن الاجل الحصول على القيمة الزائدة "يجب ان يتمكن صاحب المال من اكتشاف بضاعة في السوق، لها قيمة استعمالية، تتمتع بميزة خاصة هي ان تكون مصدرا للقيمة"، اي بضاعة تكون عملية استهلاكها في الوقت نفسه عملية تخلق قيمة. وبالفعل هذه البضاعة موجودة: انها قوة العمل الانساني. ان استهلاكها هو العمل و العمل يخلق القيمة. ان صاحب المال يشتري قوة العمل بقيمتها التي يحددها، كما يحدد قيمة كل بضاعة اخرى، وقت العمل الضروري اجتماعيا لانتاج البضاعة (اي نفقات اعالة العامل و عائلته). و حين يشتري صاحب المال قوة العمل يصبح من حقه ان يستهلكها اي ان يجعلها تعمل طوال النهار ولنقل 12 ساعة. و لكن العامل حين يشتغل 6 ساعات (اي وقت العمل "الضروري") يعطي انتاجا يغطي نفقات اعالته و في الساعات الست الاخرى (اي وقت العمل "الزائد") يعطي انتاجا "زائدا" لا يدفع الراسمالي اجرة عنه اي

يعطي القيمة الزائدة. و بالتالي فمن وجهة نظر عملية الانتاج يجب ان نميز قسمين في الراسمال: الراسمال الثابت الذي ينفق على وسائل الانتاج (الات، وادوات عمل، و مواد اولية الخ.) وتنتقل قيمته كما هي (دفعة واحدة او دفعات) الى المنتوج التام الصنع، و الراسمال المتغير (المتحرك) الذي ينفق على قوة العمل. و قيمة هذا الراسمال لا تظل ثابتة بل تنمو في عملية الانتاج، اذ تخلق القيمة الزائدة. وعليه فمن اجل التعبير عن درجة استثمار الراسمال لقوة العمل يجب مقارنة القيمة الزائدة لا بالراسمال كله بل بالراسمال المتغير. ان معدل القيمة الزائدة الاسم الذي اطلقه ماركس على هذه العلاقة سيكون في مثلنا 636 او 100 بالمائة.

ان المقدمة التاريخية لظهور راسمال هي في الدرجة الاولى تراكم كمية معينة من المال في ايدي عدد من الافراد في حين بلغ انتاج البضائع درجة ارتفاع نسبي، و هي، في الدرجة الثانية، وجود عمال "احرار" من وجهتين: من وجهة انهم احرار من كل تضييق و من كل تقيد في بيع قوة عملهم، و احرار لانهم لا يملكون ارضا و لا وسائل انتاج بوجه عام، اي وجود عمال احرار و غير مقيدين، اي وجود عمال "بروليتاريين" لا يستطيعون العيش بغير قوة عملهم.

ان ازدياد القيمة الزائدة امر ممكن بفضل وسيلتين اساسيتين: تمديد يوم العمل ("قيمة زائدة مطلقة") و التقليص في يوم العمل الضروري ("قيمة زائدة نسبية"). وعندما يحلل ماركس الوسيلة الاولى يرسم لوحة رائعة لنضال الطبقة العاملة في سبيل تقليص يوم العمل و لتدخل سلطة الدولة في سبيل تمديده (من القرن الرابع عشر الى القرن السابع عشر) و في سبيل تقليصه (تشريع المصانع في القرن التاسع عشر). و منذ نشر كتاب "راس المال" قدم تاريخ الحركة العمالية في جميع البلدان المتمدنة في العالم عددا لا يحصى من الوقائع الجديدة التي تبرهن على صدق هذه اللوحة.

ان ماركس عند تحليله القيمة الزائدة النسبية يدرس المراحل التاريخية الاساسية الثلاث لزيادة انتاجية العمل من قبل الراسمالية: 1. التعاون البسيط، 2. تقسيم العمل و المانيفاكتورة، 3. الالات و الصناعة الكبرى. ان العمق الذي يكشف به ماركس الخطوط الاساسية النموذجية لتطور الراسمالية يظهر فيما يظهر من كون دراسة الصناعة المسماة الصناعة "الحرفية" في روسيا تقدم ادلة وافرة جدا توضح و تبرز المرحلتين الاوليتين من هذه المراحل الثلاث. اما عمل الصناعة الميكانيكية الضخمة الثوري الذي وصفه ماركس في 1867 فقد ظهر خلال نصف القرن المنصرم منذ ذلك الحين في عدة بلدان "جديدة" (روسيا و اليابان و غيرهما).

واقليم راين[13] وبعد حشد وتعبئة قوات عسكرية كبيرة، بدأ الزحف البروسي على انتفاضة بادن–بالاتينا، واعتبرت الحكومة انها بلغت من القوة ما يكفي للقضاء على (الجريدة الرينانية الجديدة) بالعنف. وفي 19 ايار صدر العدد الاخير مطبوعا بالحبر الاحمر.

ومن جديد، ذهب ماركس الى باريس؛ ولكن بعد مظاهرة 13حزيران (يونيو) 1949([14]) ببضعة اسابيع، وضعته الحكومة الفرنسية امام امرين لا ثالث لهما: اما ان ينقل محل اقامته الى مقاطعة بريطانيا، واما ان يغادر فرنسا، ففضل الامر الثاني وانتقل الى لندن حيث لايزال يعيش حتى الان.

اما محاولة مواصلة اصدار (الجريدة الرينانية الجديدة) بشكل مجلة استعراضية (في هامبورغ عام 1850)، فقد ترتب العدول عنها بعد فترة من الوقت نظرا لاشتداد الرجعية اكثر فأكثر. وفور الانقلاب في فرنسا، اصدر ماركس في كانون الاول (ديسمبر) 1851 مؤلفه (الثامن عشر من برومير لويس بونابرت)، (نيورك، عام 1852، الطبعة الثانية–هامبورغ عام 1869، قبل الحرب بفترة وجيزة). وفي عام 1853 كتب (اضواء على محاكمة الشيوعيين في كولونيا) (صدر اولا في بال، وفيما بعد، في بوسطن، واعيد طبعه مؤخرا في ليبزيغ).

بعد الحكم على اعضاء عصبة الشيوعيين في كولونيا [15]، انصرف ماركس عن التحريض السياسي، وكرس نفسه في سياق عشرة اعوام، من جهة، لدراسة الكنوز الوفيرة التي كانت تحتويها مكتبة المتحف البريطاني في ميدان الاقتصاد السياسي، ومن جهة اخرى، للكتابة في جريدة "New-York Daily Tribune" (نيورك ديلي تريبيون)[16] التي كانت، قبل بداية الحرب الاهلية في اميركا[17] لاتنشر المراسلات الموقعة باسمه وحسب، بل ايضا الافتتاحيات العديدة الصادرة بقلمه حول الوضع في اوروبا وآسيا. اما مقالاته اللاذعة ضد اللورد بالمرستون، المستندة الى دراسة مسهبة للوثائق الرسمية البريطانية، فقد كان يعاد طبعها في لندن بصورة مقالات هجائية.

وكان مؤلفه (مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي) الذي صدرت طبعته الاولى في عام 1859 (برلين، دار دونكر للطبع والنشر) اول ثمرة لدراسته الاقتصاد السياسي في غضون سنوات عديدة. فان هذا المؤلف ينطوي على اول عرض منهاجي لنظرية ماركس في القيمة، بما فيها تعاليمه بشأن النقود. وابان الحرب الايطالية[18]، ناضل ماركس في الجريدة الالمانية "Das Volk" (الشعب)[19] الصادرة في لندن، سواء ضد البونابرتية التي كانت تتلون آنذاك بلون ليبرالي، وتتظاهر باداء دور محررة للقوميات المظلومة، أم ضد سياسة بروسيا التي كانت آنذاك تحاول تحت

البروسية ذريعة للمطالبة من جديد بنفي ماركس، ولكن عبثا. ولكن عندما بـدأت الاضطرابـات الشعبية في بروكسل ايضا من جراء ثورة شباط وعندما بـدا ان بليجكـا علـى ابـواب انقـلاب، اعتقلت الحكومة البلجيكية ماركس دون أي مراعاة للاصول القانونية ونفته. وكـانت الحكومـة المؤقتة في فرنسا قد دعته بواسطة فلوكون الى العودة الى باريس، فاستغل هذه الدعوة.

وفي باريس عارض قبل كل شيء المغامرة التي تفتقت عنها مخيلـة الالمـان العائشـين في بـاريس والتي كانت تهدف الى تكوين فيالق مسلحة مـن العمـال الالمـان في فرنسـا لأجـل نقـل الثـورة والجمهورية الى المانيا بواسطتها. فمن جهة، كان ينبغي ان تقوم المانيا بنفسها بثورتها؛ ومن جهـة اخرى، كان اضراب لامارتين في الحكومة المؤقتة يخونون سلفا كل فيلق ثوري اجنـبي يتشـكل في فرنسا ويسلمونه الى نفس الحكومة التي كان يجب اسقاطها، كما حدث في بلجيكا وفي بادن.

بعد ثورة آذار (مـارس)، انتقـل مـاركس الى كولونيـا واسـس فيـها "Neue Rheinische Zeitung" (الجريدة الرينانية الجديدة)[8]. وقد دامت هذه الجريدة من اول حزيران (يونيو) 1848 الى 19آيار (مايو) 1849. وكانت الجريدة الوحيـدة الـتي عكسـت وجهـة نظـر البروليتاريـا في الحركة الديموقراطية في ذلك الوقت. وقد تجلى هذا على الاقل في تضامنها المطلق مع ثوار باريس في حزيران(يونيو) 1848 [9] ومن جراء هذا، تخلى عـن الجريـدة جميـع مسـاهميها تقريبـا. وعبثـا اشارت "Kreuz Zeitung" (كروز زايتونغ)[10] الى (وقاحة تشيمبوراسو) التي تشن بها (الجريـدة الرينانية الجديدة) [11] حملاتها على كل ماهو مقدس، مـن الملـك وعميـل الامـبراطور حتـى آخـر دركي، وكل هذا في قلعة بروسية كانت تضم آنذاك حامية من ثمانية آلاف رجل؛ وعبثـا اغتـاظ البرجوازيون الصغار الرينانيون الليبراليون الذي امسوا فجأة رجعيين؛ وعبثا ادت حالة الطوارىء في كولونيا في خريف 1848 الى توقف الجريدة زمنا طويلا عـن الصـدور؛ وعبثـا طـالبت وزارة العدلية الامبراطورية في فرانكفورت من المدعي العامل في كولونيا ملاحقة الجريـدة امـام القضـاء المرة تلو المرة بسبب مقالاتها، فان الجريدة ظلت تحرّر وتصدر امام عيـون البوليـس بكـل هـدوء واطمئنان، وظل انتشارها وشهرتها يتعاظمان مع حدة حملاتها على الحكومة وعلـى البرجوازيـة. وعندما وقع انقلاب في بروسيا في تشرين الثاني (نوفمبر) 1848 [12]، اخـذت (الجريـدة الرينانيـة الجديدة) تدعو الشعب في مطلع كل عدد الى الامتناع عن دفع الضرائب والى الرد على العنـف بالعنف. وبسبب هذه الدعوة وكذلك بسبب احدى مقالاتها، احيلت في ربيع 1849 الى محكمـة المحلفين، ولكنها برئت في كلا الحالين. واخيرا، بعد قمع انتفاضتي ايار(مـايو) 1849 في درسـدن

وبعد فان الامر الهام و الجديد الى اقصى حد عند ماركس هو تحليل تراكم الراسمال اي تحول قسم من القيمة الزائدة الى راسمال و استعماله لا لسد حاجات الراسمالي الشخصية او لارضاء نزواته بل للانتاج من جديد. لقد اشار ماركس الى خطا الاقتصاد السياسي الكلاسيكي السابق كله (ابتداء من ادم سميث) الذي يعتبر ان كل القيمة الزائدة التي تتحول الى راسمال تذهب الى الراسمال المتغير بينما هي في الحقيقة تنقسم الى وسائل انتاج و راسمال متغير. و في عملية تطور الراسمالية و تحولها الى الاشتراكية يرتدي ازدياد حصة الراسمال الثابت بمزيد من السرعة (من اصل مجمل راس المال) بالقياس الى حصة الراسمال، المتغير اهمية اولية.

ان تراكم الراسمال بتعجيله في احلال الالة محل العمال وبخلقه الثراء في قطب، و البؤس في قطب اخر، يخلق ايضا ما يسمى "باحتياطي جيش العمل" او "الفائض النسبي من العمال" او "فيض السكان الراسمالي" الذي يرتدي اشكالا متنوعة الى اقصى حدود التنوع، و يمكن الراسمال من ان يوسع الانتاج بسرعة بالغة. ان هذه الامكانية اذا نسقت مع التسليف وتراكم الراسمال بشكل وسائل الانتاج تعطينا فيما تعطيه مفتاحا لفهم ازمات فيض الانتاج التي كانت في البدء تحصل على نحو دوري في البلدان الراسمالية مرة في كل عشر سنوات تقريبا و من ثم في فترات اقل تقاربا و اقل ثباتا. و يجب التمييز بين تراكم الراسمال على اساس الراسمالية و التراكم المسمى بالتراكم "البدائي" الذي يتصف بفصل الشغيل فصلا عنيفا عن وسائل الانتاج و يطرد الفلاحين من اراضيهم و بسرقة الاراضي المشاعية و بنظام المستعمرات و بالديون العامة و برسوم الحماية الخ...ان "التراكم البدائي" يخلق البروليتاري "الحر" في قطب، و في قطب اخر القابض على المال، الراسمالي.

ويصف ماركس "الاتجاه التاريخي للتراكم الراسمالي" بهذه العبارات المشهورة: "ان انتزاع ملكية المنتجين المباشرين يتم باشد النزعات الى الهدم و التدمير بعدا عن الشفقة وبدافع من احط المشاعر و احقرها و اشدها تفاهة و حقدا. فالملكية الخاصة المكتسبة بعمل المالك" (عمل الفلاح و الحرفي) "و القائمة اذا جاز التعبير على اندماج الشغيل الفردي المستقل مع ادوات و وسائل عمله تزيحها الملكية الخاصة الراسمالية التي ترتكز على استثمار قوة عمل الغير الذي لا يتمتع بغير حرية شكلية ...اما من يتعلق الامر الان بانتزاع ملكيته فلم يعد المقصود العامل الذي يدير استثمارة مستقلة بنفسه بل الراسمالي الذي يستثمر العديد من العمال. ان انتزاع الملكية هذا يتم

بفعل القوانين الملازمة للانتاج الراسمالي نفسه عن طريق تمركز الرساميل. ان راسماليا واحدا يقضي على الكثيرين من امثاله. و الى جانب هذا التمركز اي انتزاع بعض الراسماليين ملكية عدد كبير من امثالهم يتطور الشكل التعاوني لسير العمل على مقياس يتسع اكثر فاكثر كما يتطور تطبيق العلم على التكنيك تطبيقا فطنا و متعقلا و استثمار الارض استثمارا منهجيا وتحويل وسائل العمل الى وسائل للعمل لا يمكن استعمالها الا استعمالا مشتركا و توفير جميع وسائل الانتاج باستعمالها كوسائل انتاج لعمل اجتماعي منسق و دخول جميع الشعوب في شبكة السوق العالمية و تتطور الى جانب كل ذلك الصفة العالمية للنظام الراسمالي. و بقدر ما يتناقص باستمرار عدد دهاقنة الراسمال الذين يغتصبون و يحتكرون جميع منافع عملية التحول هذه بقدر ما يشتد و يستشري البؤس و الظلم و الاستعباد و الانحطاط و الاستثمار و بقدر ما يزداد ايضا تمرد الطبقة العاملة التي تتثقف و تتحد و تنتظم بفعل الية عملية الانتاج الراسمالي نفسها. وهكذا يصبح احتكار الراسمال قيد لاسلوب الانتاج الذي نشا معه و به. ان تمركز وسائل الانتاج و جعل العمل الاجتماعيا ينتهيان الى حد انهما لا يعودان يتطابقان مع اطارهما الراسمالي فينفجر. ان الساعة الاخيرة للملكية الخاصة الراسمالية تدق. ان مغتصبي الملكية تنزع منهم ملكيتهم" ("راس المال"، المجلد الاول).

ثم ان ما هو جديد و ذو اهمية كبرى انما هو تحليل ماركس في المجلد الثاني من "راس المال" لتجديد انتاج الراسمال الاجتماعي بمجموعه. و هنا ايضا لا ياخذ ماركس بعين الاعتبار ظاهرة عامة و لا جزءا من الاقتصاد الاجتماعي بل الاقتصاد الاجتماعي بكليته. ان ماركس عند اصلاحه خطا الكلاسيكيين المشار اليهم انفا يقسم مجموع الانتاج الاجتماعي الى قسمين كبيرين: اولا، انتاج وسائل الانتاج و ثانيا، انتاج سلع الاستهلاك. ثم، بالاستناد الى ارقام ياخذها على سبيل المثال يدرس درسا دقيقا تداول الراسمال الاجتماعي بمجموعه سواء في تجديد الانتاج البسيط ام في التراكم. و في المجلد الثالث من "راس المال" تجد مسالة المعدل الوسطي للربح حلا لها بالاستناد الى قانون القيمة. ولقد تحقق تقدم كبير في العلم الاقتصادي نظرا الى ان ماركس يبني تحليله على ظواهر اقتصادية كثيرة على مجموع الاقتصاد الاجتماعي لا على ظواهر منعزلة او على مظهر المزاحمة الخارجي السطحي الذي غالبا ما يقف عنده الاقتصاد السياسي المبتذل او ما يسمونه 'نظرية الحد الاقصى من النفع' الحديثة.[30] ان ماركس يحلل في الدرجة الاولى مصدر

هيغل). ثم اصدر مع فريدريك انجلس كتاب (العائلة المقدسة. ضد برونو بـاور وشـركاه)، وهـو نقد هجائي لشكل من الاشكال الاخيرة التي ارتدتها آنذاك المثالية الفلسفية الالمانية.

ان دراسة الاقتصاد السياسي وتاريخ الثورة الفرنسية الكبرى قد تركت مع ذلك لماركس مـا يكفي من الوقت لاجل مهاجمة الحكومة البروسية عندما تسنح الفرصة. وقد انتقمت منه الحكومة البروسية اذ استطاعت ان تحمل وزارة غيزو على نفي ماركس من فرنسا في ربيـع 1845 [5]. وفي هذا، اضطلع السيد الكسندر فون غومبولدت، اغلب الظن، بدور الوسيط. وانتقل مـاركس الى بروكسل ونشر هناك في سنة 1847 باللغة الفرنسية كتابه (بؤس الفلسـفة)، وهـو نقـد لكتـاب (فلسفة البؤس لبرودون، ثم نشر في سنة 1848 ((خطاب بصدد حريـة التجـارة)). وفي الوقـت نفسه نجح في تأسيس رابطة العمال الالمان ببروكسل[6]، وفي الشروع بالتـالي بـالتحريض العملـي. وقد اكتسب التحريض بنظره مزيدا من الأهمية بعد ان انتسب هو وأصدقاؤه السياسيون في عام 1847 الى عصبة الشيوعيين السرية التي كانت قائمة منذ سنوات عديدة. فأجري علـى التنظيـم كله تعديل جذري؛ وتحولت العصبة من منظمة تآمريـة الى هـذا الحـد او ذاك الى منظمـة عاديـة للدعايـة الشـيوعية لا تلجـأ الى السـرية الى عنـد الاقتضـاء، وغـدت اول منظمـة للحـزب الاشتراكي- الديموقراطي الالماني. وقـد قـامت العصبـة حيـث كـانت توجـد روابـط للعمـال الالمان. وكان الاعضـاء القـادة في كـل هـذه الروابـط تقريبـا الموجـودة في بريطانيـا، بلجيكـا وفرنسا وسويسرا وفي عدد كبير جـدا مـن هـذه الروابـط في المانيـا اعضـاء في العصبـة، كـان اشتراك العصبة في الحركة العماليـة الالمانيـة الناشئة كبـيرا جـدا. وفضـلا عـن ذلـك، كـانت عصبتنا اول منظمة اشارت الى الطابع العالمي للحركة العماليـة برمتـها، برهنـت عليـه فعـلا اذ كان بين اعضائها بريطانيون وبلجيكيون ومجريون وبولونيون وغـيرهم واذ عقـدت اجتماعـات عمالية عالمية، ولاسيما في لندن.

جرى تحويل العصبة في مؤتمرين عقدا عام 1847. وفي ثانيهما، تقرر وضع ونشر اسم برنـامج الحزب بشكل بيان عهد بتدبيجه الى ماركس وانجلس، وهكذا ظهر (بيان الحزب الشيوعي) الذي صدر للمرة الاولى في عام 1848، قبل ثورة شباط (فـبراير) بفـترة وجـيزة، ثـم ترجـم الى جميـع اللغات الاوروبية تقريبا.

ان مسـاهمة مـاركس في "Deutsche- Brusseler- Zeitung" (الجريـدة الالمانيـة – البروكسلية)[7] التي كانت تفضح بلا هوادة الازدهـار البوليسـي البروسـي قـد اعطـت الحكومـة

كـــارل مـاركس

✍ انجلس

الرجل الذي كان اول من اعطى الاشتراكية وبالتالي عموم الحركة العماليـة في أيامنـا اساسـا علميا، –واعني به كارل ماركس، – ولد في مدينة ترير سنة 1818. في البـدء درس الحقـوق في بون وبرلين، ولكنه سرعان ما انصرف كليا الى دراسة التاريخ والفلسفة. وفي سنة 1842، كـان على استعداد للشروع بالقاء محاضرات في الفلسفة بصفته استاذا محاضرا، واذا الحركة السياسـية التي انبثقت بعد وفاة فريدريك غليوم الثالث توجه حياته في مجرى آخر. فان زعمـاء البرجوازيـة الليبرالية في اقليم الراين، السادة كامبهاوزن وهانزيمان وغيرهما، قد اسسـوا في مدينـة كولونيـا Theinisehe Zeitung (الجريـدة الرينانيـة)[1] بمشـاركة مـاركس؛ وفي خريــف 1842، دعــي ماركس، الذي كان قد احدث انطباعا قويا جدا بانتقاده للمناقشات في لاندتاغ اقليـم الرايـن[2]، الى ترؤس تحرير الجريدة. يقينا ان الجريدة كانت تصدر في ظل الرقابة، ولكن الرقابة لم تستطع ان تتحكم بها[3]. فان (الجريدة الرينانية) كانت تتوصل دائما تقريبـا الى نشـر المقـالات الـتي كـانت ضرورية. في البدء كانوا يرمون للرقيب بأقل المواد قيمة لاجل الشطب الى ان يستسلم هو بنفسه او الى ان يضطر للتراجع خوفا من احتجاب الجريدة عن الصدور في اليوم التالي. ولو كانت هناك عشر جرائد اخرى تتحلى بشجاعة (الجريدة الرينانية) ويصدرها ناشرون لا يضنون ببضع مئـات اضافية من التاليرات على الصف والطباعة، لَغَدت الرقابة في المانيـا مسـتحيلة منـذ عـام 1843. ولكن اصحاب الجرائد الالمان كانوا برجوازيين صغارا تافهين، جبناء، فخاضت (الجريدة الرينانية) غمار النضال وحدها. واخرجت من الساح رقيبا بعد آخر. واخيرا فرضت عليـها رقابـة ثنائيـة، بحيث انه كان ينبغي ، بعد الرقابة الاولى، ان يراقبها رئيس الحكومة مرة ثانية واخيرة، ولكن هذا ايضا لم ينفع. وفي مطلع عام 1843، اعلنت الحكومة انه يستحيل فعل أي شـيء بـهذه الجريـدة، فمنعتها بكل بساطة.

فانتقل ماركس الى باريس؛ وكان في هذه الاثناء قد تزوج من اخت الوزير الرجعي المقبل فون ويستفالن؛ وفي باريس اخذ يصدر مع ارنولد روغة "Deutsch-Franzosische Jahrbucher" (الحولية الالمانية–الفرنسية) [4] التي افتتح فيها سلسلة ابحاثه الاشـتراكية (نقـد فلسـفة الحق عنـد

القيمة الزائدة ليدرس بعد ذلك انقسامها الى ربح و فائدة و ريع عقاري. اما الربح فهو نسبة القيمة الزائدة الى مجموع الراسمال الموظف في مشروع ما. و الراسمال "ذو التركيب العضوي العالي"(اي عندما يتجاوز الراسمال الثابت الراسمال المتغير بنسب اعلى من المعدل الاجتماعي الوسطي) يعطي معدلا من الربح ادنى من المعدل الوسطي. و الراسمال "ذو التركيب العضوي المنخفض" يعطي معدلا من الربح اعلى من المعدل الوسطي. ان تزاحم الرساميل و انتقالها الحر من فرع الى اخر يحملان في الحالتين معدل الربح الى المعدل الوسطي. ان مجموع قيم جميع البضائع في مجتمع معين يوازي مجموع اثمان البضائع ولكن في كل مشروع بمفرده و بفعل المزاحمة تباع البضائع لا بحسب قيمتها بل بسعر الانتاج (او السعر الانتاجي) الذي يعادل الراسمال المصروف مضافا اليه الربح الوسطي.

وهكذا فان انحراف السعر عن القيمة و التوزيع المتساوي للربح – هذا الواقع الذي لا يقبل الجدل و المعروف لدى الجميع – يوضحه ماركس تمام الايضاح بالاستناد الى قانون القيمة اذ ان مجموع قيم جميع البضائع يعادل مجموع اسعارها. ولكن الطريق من القيمة (الاجتماعية) الى الاسعار (الافرادية) ليس بسيطا و مباشرا بل طريق معقد جدا. فمن الطبيعي تماما في مجتمع يكون فيه منتجو البضائع متفرقين و غير مرتبطين فيمن بينهم الا بواسطة السوق ان لا يسري مفعول القوانين الا بصورة وسطية اجتماعية عامة مع ازالة الانحرافات الافرادية من هذه الجهة و تلك.

ان ازدياد انتاجية العمل يعني نموا اسرع في الراسمال الثابت بالقياس الى الراسمال المتغير. ولكن لما كانت القيمة الزائدة لا ترتبط الا بالراسمال المتغير اصبح من المفهوم ان يميل معدل الربح (اي نسبة القيمة الزائدة الى مجموع الراسمال لا الى القسم المتغير منه فقط) الى الهبوط. ان ماركس يحلل تحليلا دقيقا جدا هذا الميل كما يحلل الظروف التي تخفيه او تعاكسه. ودون ان نتوقف عند الفصول العظيمة الاهمية في المجلد الثالث المكرسة لراسمال الربا و الراسمال التجاري و الراسمال النقدي ننتقل الى الجزء الاكثر اهمية الا وهو نظرية الريع العقاري. لما كانت مساحة الارض محدودة و يشغلها تماما في البلدان الراسمالية ملاكون فرديون اصبح ثمن انتاج المنتجات الزراعية لا يتحدد بواسطة نفقات الانتاج على ارض وسطية بل على ارض من النوع الاسوا و لا بواسطة الشروط الوسطية لنقل المنتجات الى السوق بل تبعا للشروط الاقل ملاءمة. ان الفرق بين هذا الثمن و ثمن الانتاج على الارض اجود نوعا (او في شروط احسن) يعطي الريعي الفرقي

(المتفاوت). ان ماركس بالاستناد الى تحليل مفصل لهذا الريع يبين فيه ان هذا الريع ينجم عن التفاوت (الفرق) في جودة الاراضي و عن تفاوت (فرق) الرساميل الموظفة في الزراعة قد اوضح وضوحا تاما (انظر ايضا "نظريات القيمة الزائدة" حيث يستحق انتقاد رودبرتوس اهتماما خاصا) خطا ريكاردو الذي يزعم ان الريع الفرقي لا يحصل الا بالانتقال الدائم من اراض اكثر جودة الى اراض اقل جودة. فالامر على خلاف ذلك: فان تغيرات معاكسة قد تحدث ايضا. فالاراضي من فئة معينة تتحول الى اراض من فئة اخرى (بفعل ارتفاع مستوى الزراعة و نمو المدن الخ.). و القانون الشهير"قانون تناقص خصب التربة" يبدو بمثابة خطا عميق يرمي الى القاء عيوب الراسمالية و حدودها الضيقة و تناقضاتها على كاهل الطبيعة. ثم ان تساوي الربح في جميع فروع الصناعة و الاقتصاد الوطني بوجه عام يفترض حرية تامة في المزاحمة و حرية نقل الراسمال من فرع الى اخر. و لكن الملكية الخاصة للارض تخلق احتكارا و عقبة في وجه حرية النقل هذه. ان منتجات الزراعة التي تتميز بتركيب منخفض في راسمالها و التي تعطي بالتالي معدلا اعلى للربح الفردي لا تدخل بفعل هذا الاحتكار في عملية تساوي معدل الربح الحرة تماما. فالمالك الذي يحتكر الارض يتمكن من ابقاء السعر في معدل اعلى من الوسط و هذا السعر الاحتكاري يخلق الريع المطلق. ان الريع الفرقي لا يمكن الغاؤه في النظام الراسمالي و عكسا لذلك يمكن الغاء الريع المطلق بتاميم الارض مثلا عندما تصبح الارض ملكا للدولة. ان اتقال الارض هذا الى الدولة يعني تقويض احتكار الملاكين الفرديين و يعني ايضا حرية في المزاحمة اكثر انسجاما و اكتمالا في الزراعة. و لهذا كما يقول ماركس تقدم البرجوازيون الراديكاليون اكثر من مرة في التاريخ بهذا المطلب البرجوازي التقدمي القائل بتأميم الارض. هذا المطلب الذي يخيف مع ذلك اكثر البرجوازية لانه "يمس" عن قرب احتكارا اخر له في ايامنا هذه اهمية خاصة و "حساسية" خاصة و هو احتكار وسائل الانتاج بوجه عام. (ان هذه النظرية حول الربح الوسطي للراسمال و حول الريع العقاري المطلق قد عرضها ماركس باسلوب رائع بسيط و مختصر وواضح في رسالته الى انجلز بتاريخ 2 اب/اوت سنة 1862. انظر "المراسلات"، المجلد الثالث، ص 77–81، و رسالته المؤرخة في 9 اب/اوت سنة ،1862 ص 86–87، المصدر نفسه). و من الاهمية بمكان ايضا الاشارة في تاريخ الريع العقاري الى تحليل ماركس الذي يبين تحول الريع–العمل (عندما يخلق الفلاح نتاجا اضافيا بعمله في ارض الملاك) الى ريع–انتاج او الى ريع عيني (عندما يخلق الفلاح على ارضه نتاجا اضافيا يقدمه للملاك بموجب "الاكراه غير الاقتصادي") ثم الى ريع نقدي (اذ اذ يتحول هذا

26/ انظر "راس المال" لكارل ماركس، المجلد الاول.

27/ مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي" لكارل ماركس (1859).

28/ **الاستعادة** – الفترة بين 1814 و 1830 في فرنسا عندما كانت السلطة في البوربون و اعيدت الى العرش بعد قلب نظام الحكم من قبل الثورة البرجوازية الفرنسية في 1792.

29/ انظر الاعمال الكاملة لماركس و انجلس، المجلد الاول، موسكو 1973، الصفحات: 108–109 و 116 و 117–118.

30/ نظرية الاستعمال الجانبي هي نظرية اقتصادية برزت في سبعينات القرن التاسع عشر لتعارض نظرية ماركس عن القيمة. فحسب هذه النظرية يتم تقدير قيمة البضائع حسب منفعتها و ليس حسب كمية العمل الاجتماعي المبذول لانتاجها.

31/ **الشارتية** – اول حركة ثورية جماهيرية للعمال البريطانيين في ثلاثينات و اربعينات القرن التاسع عشر. قدم الشارتيون عريضتهم للبرلمان تحت اسم "عقد الشعب" وكافحوا من اجل المطالب الواردة في العقد: الاقتراع العام الغاء اهلية الملكية بالنسبة للمرشحين للبرلمان الخ. وقد انتظمت اجتماعات و مظاهرات جماهيرية ضمت الملايين من العمال و الحرفيين في كامل انحاء البلاد امتدت لسنوات. 32. الاشارة هنا الى الانتفاضة الديمقراطية للتحرر الوطني في جمهورية كراكاو التي وضعت سنة 1815 تحت السيطرة المشتركة للنمسا و بروسيا و روسيا. قام المتمردون بتكوين حكومة وطنية اصدرت بيانا يعلن الغاء الخدمات الاقطاعية و يعد الفلاحين باراض بدون سداد الدين. وفي بيانات اخرى اعلن عن انشاء ورشات وطنية باجور عالية و ادراج حقوق متساوية لجميع المواطنين. الا ان الانتفاضة قمعت بسرعة.

15/ كانت "جمعية العمال الاممية الاولى" اول اتجاه عالمي ضم احزاب العمالية من العالم في حزب عالمي واحد موحد.

16/ الباكونية هي اتجاه يعود الى زعيمها ميخائيل باكونين وهو مفكر للفوضوية و عدو للماركسية و الاشتراكية العلمية.

17/ انظر "العائلة المقدسة"، القسم الثامن، لماركس و انجلز.

18/ راس المال"، ماركس و انجلز، المجلد الاول.

19/ انتي دوهرينغ"، فريديرك انجلز.

20/ **الغنوصية** هي فلسفة مثالية تقر بانه لا يمكن ادراك العالم وان عقل الانسان محدود و ليس بمقدوره معرفة ما يتجاوز مملكة الحواس. وللغنوصية اشكال مختلفة: فيقر بعض الغنوصيين بالوجود الموضوعي للعالم المادي ولكنهم ينكرون امكانية معرفته و ينكر اخرون بوجود العالم المادي بحجة ان الانسان لا يمكنه معرفة ما اذا يوجد شيء ما خارج حواسنا.

نقد – اطلق كانت هذا الاسم على فلسفته المثالية معتبرا القدرة الادراكية للانسان هي الهدف من تلك الفلسفة. نقدية كانط قادته الى الاقتناع بان عقل الانسان لا يمكنه معرفة طبيعة الاشياء.

الفلسفة الوضعية – نزعة واسعة الانتشار في الفلسفة البرجوازية و علم الاجتماع. اسسها الفيلسوف وعالم الاجتماع الفرنسي كونت (1798–1857). يرفض الوضعيون امكانية ادراك النظم و العلاقات الداخلية وينكرون كذلك دور الفلسفة كمنهج للمعرفة وتغيير العالم الموضوعي. فهم يختزلون الفلسفة في حصيلة من المعطيات توفرها مختلف فروع العلم و ووصف سطحي لنتائج الملاحظة المباشرة. تعتبر الوضعية نفسها انها "فوق" المادية و المثالية الا انها في الواقع هي ليست الا نوع من المثالية الذاتية.

21/ لودفيغ فيورباخ و نهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية" لفريدريك انجلز.

22/ انتي دوهرنغ" لفردريك انجلز.

23/ لودفيغ فيورباخ و نهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية" لفردريك انجلز.

24/ انتي دوهرنغ" لفريديرك انجلز.

25/ لودفيغ فيورباخ و نهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية" لفريدرك انجلز.

الريع العيني الى نقد – "اوبروك" اي اتاوة في روسيا القديمة – بسبب تطور انتاج البضائع) و اخيرا الى ريع راسمالي عندما يحل محل الفلاح في الزراعة رب عمل يزرع الارض باللجوء الى العمل الماجور. و لنشر بصدد هذا التحليل "لتولد الراع العقاري الراسمالي" الى جملة من افكار ماركس العميقة (ذات الاهمية الخاصة بالقياس الى البلدان المتاخرة كروسيا مثلا) حول تطور الراسمالية في الزراعة. "مع تحول الريع العيني الى ريع نقدي، تتكون بالضرورة، في الوقت نفسه و حتى مسبقا، طبقة من المياومين الذين لا يملكون و يعملون بالاجرة. و في الوقت الذي تتكون فيه هذه الطبقة التي لم تكن ظهرت الا ظهورا متفرقا يكون الفلاحون الميسورون الملزمون بدفع اتاوة قد اعتادوا بالطبع استثمار بعض الاجراء الزراعيين لحسابهم الخاص كما كان يحدث تماما في النظام الاقطاعي، حيث كان للفلاحين الاقنان الميسورين اقنان اخرون ايضا. و من هنا كانت تتوافر لهم امكانية جمع الثورة شيئا فشيئا و تحويل انفسهم الى راسماليين مقبلين.

وهكذا تتكون بين مالكي الارض القدماء، ممن يديرون استثمارات مستقلة، بيئة تنبت مستاجري الاراضي الراسماليين الذين يرتبط تطورهم بالتطور العام للانتاج الراسمالي خارج الزراعة" ("راس المال"، المجلد الثالث، 2، ص 332)..."ان انتزاع ملكية قسم من سكان الارياف و طردهم من الريف لا "يحرران" عمالا ووسائل للعيش و العمل لهم من اجل الراسمال الصناعي و حسب بل يخلقان السوق الداخلية ايضا" ("راس المال"، المجلد الاول، 2، ص 778). ان املاق و خراب سكان الارياف يسهمان بدورهما في انشاء جيش احتياطي من العمال للراسمال . لهذا في كل بلد راسمالي "يوجد دائما قسم من سكان الارياف يوشك على الدوام ان يتحول الى سكان مدن او الى سكان يعملون في الصناعة (اي غير زراعيين). وهذا المورد لتزايد السكان النسبي لا ينضب ابدا...فالعامل الزراعي مكره على تقاضي الحد الادنى من الاجرة و يقف دائما على احدى رجليه في مستنقع الاملاق" ("راس المال"، المجلد الاول، 2، ص 668). ان ملكية الفلاح الخاصة للاراض التي يزرعها تؤلف اساس الانتاج الصغير تؤلف الشرط الذي يسمح لهذا الانتاج بان يزدهر و ياخذ شكلا كلاسيكيا. و لكن هذا الانتاج الصغير لا ينسجم الا مع الاطارات البدائية الضيقة للانتاج و المجتمع. ففي النظام الراسمالي "لا يتميز استثمار الفلاحين عن استثمار البروليتاري الصناعية الا من حيث الشكل. فالمستثمر هو اي الراسمال كلا بمفرده يستثمرون الفلاحين كلا بمفرده بواسطة الرهن و الربا. ان طبقة الراسماليين تستثمر طبقة الفلاحين بواسطة الضرائب" ("نضال الطبقات في فرنسا"). "ان ارض الفلاح الصغيرة لم تعد سوى ذريعة تتيح للراسمال ان

يجني من الارض ربحا و فائدة و ريعا و ان يترك لمالك الارض نفسه امر الاهتمام بالطريقة التي يراها ناجحة للحصول على اجرته" ("18 برومير"). بل ان الفلاح يقدم عادة الى المجتمع الراسمالي اي الى طبقة الراسمالي قسما من اجرته و يقع على هذا النحو "في حالة المكتري الارلندي مع احتفاظه بمظهر المالك الفردي" ("نضال الطبقات في فرنسا"). فما اذن "احد الاسباب التي تؤدي الى ان يكون سعر الحبوب في البلدان التي تسود فيها الملكية الصغيرة للارض اقل منه في البلدان ذات اسلوب الانتاج الراسمالي؟" ("راس المال"، المجلد الثالث، 2، ص 340) ذلك ان الفلاح يقدم مجانا الى المجتمع (اي طبقة الراسماليين) قسما من نتاجه الزائد. "ان هذا السعر المنخفض (اي سعر الحبوب و بقية المنتجات الزراعية) ينجم اذن عن فقر المنتجين و لا ينجم ابدا عن انتاجية عملهم". ("راس المال"، المجلد الثالث، 2، ص 340). فان الملكية الزراعية الصغيرة التي هي الشكل العادي للانتاج الصغير تتدهور في النظام الراسمالي و تبيد و تهلك. "ان الملكية الصغيرة للارض تحول بحكم طبيعتها دون تطور قوى العمل الانتاجية الاجتماعية و اشكال العمل الاجتماعية و تمركز الرساميل الاجتماعي و تربية المواشي على نطاق كبير و تطبيق العلم تطبيقا مطردا. ان الربا و نظام الضرائب يحتمان خراب الملكية الزراعية الصغيرة في كل مكان. فينتزع من الزراعة الراسمال الموظف لشراء الارض. وتجزا وسائل الانتاج الى ما لانهاية و يتبعثر المنتجون". (ان التعاونيات اي جمعيات الفلاحين الصغار التي تقوم باعظم دور تقدمي برجوازي يمكنها فقط ان تضعف هذا الاتجاه دون ان تمحوه و يجب ان لا ننسى ايضا ان هذه التعاونيات تعطي كثيرا للفلاحين الميسورين و لكنها تعطي قليلا جدا لجمهور الفلاحين الفقراء او لا تعطيهم شيئا تقريبا ثم ان الامر ينتهي بهذه الجمعيات الى ان تستثمر بنفسها العمل الماجور). "فهناك تبذير هائل للقوة الانسانية. ان تفاقم شروط الانتاج تفاقما مطردا و ارتفاع اسعار وسائل الانتاج هما قانونان ملازمان للملكية الصغيرة المجزاة". ("راس المال المجلد الثالث). ففي الزراعة كما في الصناعة لا يظهر تحول الراسمالية اسلوب الانتاج على حساب "شهادة المنتج". "ان تبعثر العمال الزراعيين على مساحات كبرى يحطم قوة مقاومتهم في حين يزيد التجمع قوة مقاومة عمال المدن. و في الزراعة الحديثة الراسمالية كما في الصناعة الحديثة يتم التوصل الى نمو قوة العمل الانتاجية و الى زيادة قابليته للحركة عن طريق تحطيم قوة العمل بالذات و استنفادها. و من جهة اخرى كل تقد للزراعة الراسمالية هو تقدم لا في فن نهب الشغيل فحسب بل في فن نهب الارض ايضا ...فالانتاج الراسمالي اذن لا يطور التكنيك و تنسيق عملية الانتاج الاجتماعية الا باستنزافه في

8/ البرودونية هي اتجاه برجوازي صغير في الاشتراكية معادي للماركسية و تسمى بذلك نسبة لمفكرها الفوضوي الفرنسي جون بيار برودون. فقد انتقد برودون الملكية الكبيرة الراسمالية من موقع برجوازي صغير وحلم بارساء ملكية خاصة صغيرة. واقترح انشاء بنوك "الشعب" و "التبادل" يكون بامكان العمال بواسطتها امتلاك وسائل الانتاج وان يصبحوا حرفيين و يضمنوا تسويقا عادلا لانتاجهم. لم يدرك برودون الدور التاريخي للبروليتاريا و ابدى موقفا سلبيا من الصراع الطبقي و الثورة البروليتارية و ديكتاتورية البروليتاريا. و كفوضوي انكر الحاجة الى الدولة. و قد وجه ماركس نقدا حادا لبرودون في عمله "بؤس الفلسفة".

9/ العصبة الشيوعية هي اول منظمة شيوعية اممية للبروليتاريا بقيادة ماركس و انجلس تاسست في لندن في اوائل شهر حزيران 1847. وساعد ماركس و انجلس في وضع البرنامج العملي و التنظيمي للعصبة. فكتبا "بيان الحزب الشيوعي" الذي نشر في شباط 1848. كانت العصبة الخليف لجمعية العمال العالمية (الاممية الاولى) التي تواجدت الى حدود نوفمبر 1852. ولعب زعماؤها البارزين بعد ذلك دورا قياديا في الاممية الاولى.

10/ اشارة الى الثورة البرجوازية في فرنسا في شباط 1848.

11/ اشارة الى الثورات البرجوازية في المانيا و النمسا التي بدأت في مارس 1848.

12/ الجريدة الرينانية الجديدة" صدرت في كولونيا من 1 حزيران 1848 الى غاية 19 ايار 1849. وقد اشرف ماركس وانجلس على ادارة الجريدة وتولى ماركس رئاسة التحرير. ووصف لينين "الجريدة الرينانية الجديدة" بانها اروع و افضل ناطق باسم البروليتاريا الثورية" وبرغم الاضطهاد و العراقيل التي وضعها امامها البوليس دافعت الصحيفة بقوة و ثبات عن مصالح الديمقراطية الثورية ومصالح البروليتاريا. وبسبب ابعاد ماركس عن بروسيا في ايار 1849 واضطهاد المحررين الاخرين توقفت الجريدة عن الظهور.

13/اشارة الى المظاهرة الجماهيرية في باريس و التي نظمها "المونتاني" – حزب البرجوازية الصغيرة– احتجاجا على خرق الرئيس و الاغلبية في الجمعية التشريعية للاوامر الدستورية التي وضعتها ثورة 1848. وتم تفريق المظاهرة من قبل الحكومة.

14/ اشارة الى كراس ماركس "هار فوغت" التي كتبها كرد على منشور افتراء "سيرورتي ضد 'جريدة المانية'" لفوغت وهو رجل استفزازي بونابرتي.

الهوامش:

* **المناشفة**: اتجاه انتهازي في الحركة الاشتراكية–الديمقراطية الروسية

1/ الهيغيليين اليساريين او الهيغيليين الشبان. اتجاه مثالي في الفلسفة الالمانية في ثلاثينات و اربعينات القرن التاسع عشر. حاول الهيغيليون الشبان الخروج بنتائج راديكالية لاثبات ضرورة الاصلاح البرجوازي في المانيا. و كان زعماء ذاك الاتجاه: دايفيد ستراوس الاخوة باور ماكس ستيرنر واخرون. و لوقت ما انضم فيورباخ و كذلك ماركس و انجلس في فترة شبابهم الى الهيغيليين الشبان. و انفصل ماركس و انجلس فيما بعد عنهم و انتقدوا الفحوى المثالي و البرجوازي الصغير للاتجاه في "العائلة المقدسة" (1844) و "الايديولوجيا الالمانية" (1845–1846).

2/ لودفيغ فيورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية، فريديريك انجلس.

3/ الجريدة الرينانية للسياسة والتجارة والصناعة". جريدة يومية ظهرت في كولونيا من 1 كانون الثاني 1842 الى 31 مارس 1843. اسسها ممثلون عن البرجوازية الرينانية الذين كانوا يعارضون الاستبداد البروسي. وقد تم استدعاء بعض الهيغيليين اليساريين للاسهام في الجريدة. و اصبح ماركس متعاونا في افريل 1842 و احد محرريها منذ أكتوبر من نفس السنة. وتحت اشراف ماركس اصبحت "الجريدة الرينانية" تتخذ صبغة ديمقراطية ثورية. و في جانفي 1843 اصدرت الحكومة البروسية امرا باغلاق الصحيفة في 1 نيسان 1843وفي نفس الوقت فرض رقابة خاصة مشددة.

4/لم يقع ادراج هذه "البيبلوغرافيا" التي كتب لينين لهذا المقال.

5/ المرجع هو مقال ماركس "تبرير مراسل الموزال".

6/ المرجع هي "الحوليات الالمانية–الفرنسية". مجلة اشرف على تحريرها كارل ماركس و ارنولد روج و صدرت بالالمانية في باريس. و لم يظهر منها الا العدد الاول – عددا مزدوجا– في شباط1844. و قد تضمنت اعمالا لكارل ماركس و فردريك انجلس التي سجلت الانتقال النهائي لماركس و انجلس نحو المادية و الشيوعية. و توقف اصدار المجلة نتيجة اختلافات جوهرية بين ماركس و البرجوازي الراديكالي روج.

7/ مساهمة في نقد فلسفة الحق لهيغل– المقدمة". كارل ماركس.

الوقت نفسه الينبوعين اللذين تنبثق منهما كل ثـروة: الارض و الشـغيل" ("راس المـال"، المجلـد الاول، نهاية الفصل الثالث عشر).

الاشتراكية

نرى مما تقدم ان ماركس يخلص الى ان المجتمع الراسمالي سيتحول حتما الى مجتمع اشـتراكي وهـو يستخلص ذلك استخلاصا تاما و علـى وجـه الحصـر مـن القـانون الاقتصـادي لحركـة المجتمـع الحديث. ان جعل العمل اجتماعيا ان هذه العملية الـتي تتقـدم بسـرعة مـتزايدة ابـدا و بـالوف الاشكال و التي ظهرت بوجه خاص خلال النصف القرن الذي انقضـى علـى وفـاة مـاركس في توسـع الصناعـة الكبـيرة و الكـارتيلات و السـنديكات و التروسـتات الراسماليـة و في التطـور الاسطوري لنسب راس المال المالي و قوته ذلك هو الاسـاس المـادي الرئيسـي لمجـيء الاشـتراكية الذي لا مناص منه. ان المحرك الفكري و المعنوي و العامل المادي لهذا التحول انما هو البروليتاريا التي تثقفها الراسمالية نفسها. ان نضال البروليتاريا ضد البرجوازية، الذي يتخذ اشكالا مختلفة و محتوى يغتني باستمرار ، يصبح حتما نضالا سياسيا يرمـي الى اسـتيلاء البروليتاريـا علـى الحكـم السياسي ("ديكتاتورية البروليتاريا"). و لابد لعملية جعل الانتاج اجتماعيا مـن ان تجعـل وسـائل الانتاج ملكية اجتماعية و ان تؤدي الى "انتزاع الملكية مـن مغتصبيـها". ان الـتزايد الضخـم في انتاجية العمل و انقاص يوم العمل و احلال العمل التعـاوني المتقـن محـل بقايـا الانتـاج الصغـير البدائي المبعثر و على انقاضه تلك هي النتائج المباشرة لهذا التحـول. ان الراسماليـة تقطـع نـهائيا الروابط التي تصل الزراعة بالصناعة و لكنها في الوقت نفسه تهيئ بتطورها الاكثر تقدما العناصر الجديدة لهذا الترابط و تهيئ اتحاد الصناعة بالزراعة على اساس تطبيق العلم تطبيقا واعيا، و على اساس تنسيق العمل التعاوني و توزيع جديد للسكان (وضع حد لعزلة الريـف عـن العـالم و مـا يعانيه من تخلف وعزلة و توحش، و كذلك لتكدس عدد ضخم من السكان في المدن الكبيرة على نحو غير طبيعي). ان الاشكال العليا للراسمالية الحديثة تهيئ شكلا جديدا للعائلة و شروطا جديدة للمراة و لتربية الاجيال الناشئة. فان عمل النساء و الاولاد و احلال العائلة البطريركيـة بسـبب النظام الراسمالي ياخذان حتما في المجتمع الحديث اكثر الاشكال فظاعة و اشدها تدميرا و تنفـيرا. ومع ذلك "فالصناعة الكبيرة باعطائها النساء و الاحداث و الاولاد من الجنسـين دورا حاسمـا في عملية الانتاج المنظمة اجتماعيا خارج النطاق العائلي تخلق اساسا اقتصاديا جديدا لشـكل اعلـى

من اشكال العائلة و العلاقات بين الجنسين. و من الخرق طبعا ان يعتبر بمثابة شيء مطلق سواء الشكل الجرماني المسيحي للعائلة ام الاشكال القديمة الرومانية و اليونانية و الشرقية التي تؤلف من جهة اخرى سلسلة واحدة من التطورات التاريخية المتعاقبة. و من البديهي ايضا ان تركيب الهيئة العمالية المختلطة عن طريق اجتماع افراد من الجنسين و من مختلف الاعمار – مع كونه في شكله الرسمي العفوي الفظ حيث العامل موجود من اجل عملية الانتاج و ليس عملية الانتاج موجودة من اجل العامل يؤلف ينبوعا موبوءا للافساد و الاستعباد – ان هذا التركيب يجب ان يتحول بالعكس في ظروف مؤاتية الاى ينبوع الى التطور الانساني" ("راس المال" المجلد الاول نهاية الفصل الثالث عشر). ان نظام المصنع يبين لنا "بذور التربية في المستقبل هذه التربية التي ستوحد العمل المنتج لجميع الاولاد فوق سن معينة مع التعليم و الرياضة و ذلك ليس فقط بمثابة طريقة تهدف الى زيادة الانتاج الاجتماعي بل بمثابة الطريقة الوحيدة الفريدة لانتاج رجال متطورين من كل النواحي" (المصدر نفسه). وعلى الاساس التاريخي نفسه تضع اشتراكية ماركس قضيتي القومية و الدولة لا لتفسير الماضي و حسب بل لتحديد التنبؤات بجراة و للقيام بعمل مقدام في سبيل تحقيقها. ان الامم هي الانتاج و الشكل الحتميان للمرحلة البرجوازية من التطور الاجتماعي. ان الطبقة العاملة لم تستطع ان تقوي نفسها و تنضج و تتطون الا "بتكوين نفسها ضمن الحدود القومية" دون ان تكون "قومية " ("وان لم يكن اطلاقا بالمعنى البرجوازي للكلمة").
و الحال ان تطور الراسمالية لا ينفك يحطم الحدود القومية و يهدم العزلة القومية يحل التناحرات الطبقية محل التناحرات القومية. و لهذا يكون من الصحيح تماما "ان ليس للعمال وطن" في البلدان الراسمالية المتطورة و ان "توحيد جهود" العمال في البلدان المتمدنة على الاقل "هو احد الشروط الاولية لتحرر البروليتاريا" ("البيان الشيوعي"). اما الدولة، هذا العنف المنظم، فقد ظهرت ظهورا حتميا عند درجة معينة من تطور المجتمع، حينما اصبح المجتمع منقسما الى طبقات، لا يمكن التوفيق بينها و لم يعد في طوقه ان يعيش بدون "سلطة" موضوعة كما يزعم فوق المجتمع و مفصولة عنه الى حد ما. و هذه الدولة التي ولدت في قلب التناحرات الطبقية تصبح "دولة الطبقة الاقوى الطبقة المسيطرة اقتصاديا و التي تغدو ايضا بفضل الدولة الطبقة المسيطرة سياسيا، و هكذا تكتسب وسائل جديدة لاخضاع الطبقة المظلومة و استثمارها. و على هذا النحو كانت الدولة القديمة قبل كل شيء دولة ملاكي عبيد لاخضاع العبد كما ان الدولة الاقطاعية كانت جهاز النبلاء لاخضاع الفلاحين الاقنان و كما ان الدولة التمثيلية الحديثة هي اداة استثمار

صفحة 217) [21]. و في الحقبة الممتدة من 1863 الى 1870 حينما كانت مرحلة الثورة البرجوازية الديمقراطية في المانيا تشرف على نهايتها هذه المرحلة التي كانت تتنازع فيها طبقات المستثمرين في بروسيا و النمسا حول طرق انجاز هذه الثورة من فوق لم يكتف ماركس بشجب لاسال لمداعباته مع بيسمارك انما كان يصلح ايضا ليبكنخت الذي وقع في "حب النمسا" و اخذ يدافع عن الخصائص المحلية [22]. وكان ماركس يلح على انتهاج تاكتيك ثوري يكافح بلا هوادة سواء بيسمارك ام محبي النمسا، تاكتيك لا يتكيف "للمنتصر"–اليونكر [23] البروسي– بل يجدد النضال الثوري ضده فورا، و بالضبط في الميدان الناجم عن انتصارات بروسيا العسكرية ("المراسلات"، المجلد الثالث، ص ص 134، 136، 147، 179، 204، 210، 215، 318، 437، 440 – 441)

[24] و في رسالة الاممية الشهيرة الصادرة في 9 ايلول–سبتمبر 1870، حذر ماركس البروليتاريا الفرنسية من انتفاضة قبل الاوان، و لكن عندما قامت هذه الانتفاضة مع ذلك (1871) حيا ماركس بحماسة المبادرة الثورية لدى الجماهير "التي تصعد لمهاجمة السماء" (رسالة ماركس الى كوغلمان). ان هزيمة الحركة الثورية في هذا الوضع مثلها في العديد من الاوضاع الاخرى قد كانت من وجهة نظر مادية ماركس الديالكتيكية شرا اهون بالنسبة الى مجمل سير النضال البروليتاري و بالنسبة الى نتيجة هذا النضال من شر اخلاء الموقع للمحتل و الاستسلام دون قتال ان مثل هذا الاستسلام كان من شانه ان يثبط من معنويات البروليتاريا و ان يقوض كفاحيتها. اذ ماركس، مع تقديره التام لاستخدام وسائل النضال الشرعية في مراحل الركود السياسي و سيطرة الشرعية البرجوازية، قد شجب بشدة بالغة في 1877–1878 بعد سن القانون الاستثنائي ضد الاشتراكيين[25] "الجملة الثورية" لدى موست. وحمل بنفس الشدة، ان لم يكن اكثر، على الانتهازية التي كانت قد استولت موقتا حينذاك على الحزب الاشتراكي–الديمقراطي الرسمي الذي لم يعرف كيف يعطي الدليل فورا على الثبات و الصلابة و الروح الثورية و كيف يظهر جوابا على القانون الاستثنائي استعداده للانتقال الى النضال السري. ("المراسلات"، المجلد الرابع، ص ص 397، 303، 418، 422، 424. [26]. راجع ايضا رسائل ماركس الى سورجي).

1849 ساند ماركس في المانيا الديمقراطية الثورية المتطرفة و لم يتراجع قط عما قاله حينذاك عن التاكتيك. و كان يعتبر البرجوازية الالمانية بمثابة عنصر "كان يجنح منذ البداية الى خيانة الشعب" (فقط التحالف مع جماهير الفلاحين كان بوسعه ان يتيح للبرجوازية بلوغ اغراضها كاملة) "و الى اجراء مساومة مع الممثلين المتوجين للمجتمع القديم". و فيما يلي التحليل النهائي الذي اعطاه ماركس عن وضع البرجوازية الالمانية الطبقي في مرحلة الثورة البرجوازية الديمقراطية مع العلم ان هذا التحليل هو نموذج للمادية التي تنظر الى المجتمع من حيث حركته و ليس فقط من جانب الحركة المتجه نحو الماضي..."عادمة الايمان بنفسها (اي البرجوازية الالمانية– المعرب) عادمة الايمان بالشعب، متذمرة من الكبار، مرتجفة امام الصغار... خائفة من الاعصار العالمي...فاقدة العزيمة في اي مكان منتحلة في كل مكان...دون مبادرة...كعجوز تنيخ عليه اللعنة محكوم عليه بحكم مصالح شيخوخته بقيادة الاندفاعات الفتية الاولى لشعب فتي قوي" ("الجريدة الرينانية الجديدة"، 1848. انظر"التركة الادبية"، المجلد الثالث، صفحة 212). وبعد زهاء عشرين سنة كتب ماركس في رسالة الى انجلس (المجلد الثالث صفحة 224) ان فشل ثورة 1848 سببه ان البرجوازية كانت قد فضلت المسالمة مع العبودية على مجرد امكانية الكفاح في سبيل الحرية. وعندما اختتمت مرحلة ثورات 1848–1849، هب ماركس ضد كل محاولة للعب بالثورة (النضال ضد شابر و ويليخ) مصرا على معرفة العمل في المرحلة الجديدة التي تهيء ثورات جديدة تحت ستار "سلم" ظاهري. ان تعليق ماركس التالي حول الوضع في المانيا في 1856 في مرحلة الرجعية الاشد اسودادا يبين باية روح كان ماركس يرغب في ان يتم هذا العمل: "سيتوقف كل شيء في المانيا على امكانية دعم الثورة البروليتارية ،بطبعة ما، جديدة، لحرب الفلاحين" ("المراسلات" المجلد الثاني صفحة 108). و طالما لم تنته الثورة الديمقراطية (البرجوازية) في المانيا وجه ماركس كل انتباهه فيما يتعلق بتاكتيك البروليتاريا الاشتراكية الى تطوير طاقة الفلاحين الديمقراطية. وكان يعتبر ان موقف لاسال هو "موضوعيا خيانة للحركة العمالية في صالح بروسيا" (المجلد الثالث صفحة 210) و ذلك بالضبط لان لاسال يتسامح مع الملاكين العقاريين و التعصب القومي البروسي. وقد كتب انجلس في 1865 اثناء تبادل وجهات النظر مع ماركس بصدد مشروع بيان مشترك في الصحف يقول: "في بلد زراعي، من السفالة ان يصار باسم العمال الصناعيين الى تسديد الضربة الى البرجوازية فقط دون الاشارة الى استثمار العمال الزراعيين على الطريقة البطريركية (الابوية) و "تحت ضربات العصى" من جانب النبلاء الاقطاعيين" (المجلد الثالث،

الراسماليين للعمال الماجورين" (انجلس في كتاب "اصل العائلة و الملكية الخاصة و الدولة" حيث عرض وجهات نظره ووجهات نظر ماركس). وحتى الشكل الاوفر حرية و الاكثر تقدما للدولة البرجوازية و نعني به الجمهورية الديمقراطية لا يلغي ابدا هذا الواقع بل يعدل شكله فقط (ارتباط الحكومة بالبورصة، رشوة الموظفين و الصحافة، على نحو مباشر و غير مباشر الخ). ان الاشتراكية اذ تقود الى الغاء الطبقات تقود بالتالي الى الغاء الدولة. "ان اول عمل تثبت به الدولة فعلا انها تمثل المجتمع باسره – اي الاستيلاء على وسائل الانتاج في صالح المجتمع باسره – هو في الوقت نفسه اخر عمل خاص بها بوصفها دولة. ان تدخل سلطة الدولة في العلاقات الاجتماعية يصبح نافلا في ميدان بعد اخر ثم يتلاشى من تلقاء نفسه. و محل حكم الاشخاص تحل ادارة الاشياء و قيادة عملية الانتاج. ان الدولة "لا تلغى"، انها "تضمحل" (انجلس، "ضد دوهرنغ"). "ان المجتمع الذي سينظم الانتاج على اساس المشاركة الحرة المتساوية بين المنتجين سيعيد كل الة الدولة الى المكان اللائق بها: متحف الاثار الى جانب المغزل اليدوي و الفاس البرونزية (انجلس، "اصل العائلة و الملكية الخاصة و الدولة").

واخيرا من الاهمية بمكان ان نشير في معرض موقف اشتراكية ماركس من الفلاح الصغير الذي سيبقى موجودا ايضا في مرحلة انتزاع الملكية من مغتصبيها الى هذا البيان من انجلس الذي يعبر عن راي ماركس: "عندما تصبح سلطة الدولة في ايدينا لن يكون بالامكان ان يخطر ببالنا ان ننتزع ملكية الفلاحين الصغار بعنف (بتعويض او بغير تعويض سيان) مثلما سنكون مضطرين لان نفعل بالنسبة لكبار الملاكين العقاريين. ان مهمتنا تجاه الفلاح الصغير ستكون قبل كل شيء توجيه انتاجه الخاص في السبيل التعاوني، لا بواسطة العنف، بل عن طريق المثل و تقديم مساعدة المجتمع لهذا الغرض. و من المؤكد ان سيكون لدينا ما يكفي من الوسائل لاقناع الفلاح بجميع المزايا التي يتسم بها هذا التحول و التي لا بد من توضيحها له منذ الان". (انجلس، "مسالة الفلاحين في فرنسا و المانيا". طبع الكسييفا، صفحة 17. الترجمة الروسية باغلاط. النص الاصلي في جريدة Neue Zeit).

تاكتيك نضال البروليتاريا الثوري

لما كان ماركس قد ابصر جليا منذ 1844–1845 احدى النواقص الاساسية في المادية القديمة وهي ان المادية القديمة لم تعرف كيف تفهم شروط النشاط العملي الثوري و لا ان تقدر اهميته نه

الى جانب اعماله النظرية قد اعار طوال حياته انتباها دائبا لمسائل تاكتيك نضال البروليتاريا الطبقي. و من هذه الناحية تقدم جميع مؤلفات ماركس مراجع غنية و لا سيما مراسلاته مع انجلس المنشورة عام 1913 في اربع مجلدات. ان هذه المراجع ما تزال بعيدة عن ان تكون كلها مجموعة و مصنفة و مدروسة و معمقة. ولهذا يترتب علينا ان نكتفي هنا باعم الملاحظات و اوجزها مع الاشارة الى ان ماركس كان يعتبر بحق ان المادية اذا جرت من هذا الجانب كانت غير كاملة و وحيدة الجانب و عديمة الحيوية. لقد كان ماركس يحدد المهمة الاساسية لتاكتيك البروليتاريا بالتوافق الدقيق مع جميع مقدمات مفهومه المادي-الديالكتيكي. ان حسبان الحساب بشكل موضوعي لمجموع العلاقات بين جميع الطبقات في مجتمع معين دون استثناء و بالتالي حسبان الحساب للدرجة الموضوعية لتطور هذا المجتمع و للعلاقات بينه و بين سائر المجتمعات يمكن له وحده ان يكون اساسا لتكتيك صحيح للطبقة المتقدمة. و عليه ينظر الى جميع الطبقات و جميع البلدان لا من حيث مظهرها الثابت بل من حيث مظهرها المتحرك اي لا في حالة الجمود بل في حالة الحركة (الحركة التي تنبثق قوانينها من الشروط الاقتصادية لمعيشة كل طبقة). و الحركة بدورها ينظر اليها لا من وجهة نظر الماضي و حسب بل من وجهة نظر المستقبل ايضا و فضلا عن ذلك ينظر اليها لا وفقا للمفهوم المبتذل "للتطوريين" الذين لا يلاحظون سوى التحولات البطيئة بل وفقا للديالكتيك. فقد كتب ماركس الى انجلس يقول: "في التطورات التاريخية الكبرى ليست عشرون سنة اكثر من يوم واحد مع انه قد تاتي فيما بعد ايم تضم في احشائها عشرين سنة" ("المراسلات"، المجلد الثالث، صفحة 167). و في كل درجة من التطور و في كل لحظة يجب على تاكتيك البروليتاريا ان ياخذ بعين الاعتبار هذا الديالكتيك الحتمي موضوعيا لتاريخ الانسانية: و ذلك من جهة باستخدام مراحل الركود السياسي اي مراحل التطور "الهادئ" -كما يزعم- الذي يتقدم بخطى السلحفاة من اجل تطوير الوعي و القوى و القدرة النضالية لدى الطبقة المتقدمة و من جهة اخرى بالاتجاه في كل هذا العمل نحو "الهدف النهائي" لحركة هذه الطبقة بجعلها قادرة علة ان تحل عمليا المهمات الكبرى للايام العظيمة "التي تضم في احشائها عشرين سنة". ثمة بحثان لماركس بهذا الصدد يرتديان اهمية خاصة. الاول في كتابه "بؤس الفلسفة" و يتعلق بنضال البروليتاريا الاقتصادي و بمنظماتها الاقتصادية و الاخر في "البيان الشيوعي" و يتعلق بمهمات البروليتاريا السياسية. ام الاول فقد ورد كما يلي: "ان الصناعة الكبرى تجمع في مكان واحد جمهورا من الناس لا يعرف بعضهم بعضا. و المزاحمة تفرق

مصالحهم. و لكن وقاية الاجرة هذه المصلحة المشتركة بينهم ضد سيدهم تجمعهم في فكرة واحدة فكرة المقاومة و التحالف...ان التحالفات تبدا منعزلة ثم تتألف في جماعات و بوجه الراسمال المتجمع على الدوام يغدو حفاظ العمال على اتحاداتهم اهم بنظرهم من وقاية الاجرة...و في هذا النضال – هذه الحرب الاهلية الحقيقة – تتجمع و تتطور جميع العناصر الضرورية لمعركة مقبلة. و عند بلوغ هذه النقطة ياخذ التحالف طابعا سياسيا". ان لدينا هنا برنامج و تاتيك النضال الاقتصادي و الحركة النقابية لبضع عشرات السنين لكل المرحلة الطويلة من تحضير قوى البروليتاريا "لمعركة مقبلة". و تجدر المقارنة بين ذلك و بين اشارات ماركس و انجلس العديدة المبنية على تجربة الحركة العمالية الانجليزية و التي تبين كيف ان "الازدهار" الصناعي يستثير محاولات "لشراء العمال" ("المراسلات، المجلد الاول، صفحة 136)، و صرفهم عن النضال، و كيف ان هذا الازدهار "يفسد معنويات العمال" بوجه عام (المجلد الثاني صفحة 218) و كيف ان البروليتاريا الانجليزية "تتبرجز" و كيف ان "الامة الاكثر برجوازية بين الامم" (الامة الانجليزية) "تبدو كأنها تريد اخيرا ان يكون لديها، الى جانب البرجوازية، اريستقراطية برجوازية و بروليتاريا برجوازية" (المجلد الثاني، صفحة 290)، وكيف ان "الطاقة الثورية تتلاشى و تزول لدى البروليتاريا الانجليزية" (المجلد الثالث صفحة 124) و كيف ينبغي الانتظار زمنا قد يطول الى هذا الحد او ذاك "لكي يتخلص العمال الانجليز مما يبدو عليهم من الفساد البرجوازي" (المجلد الثالث صفحة 127)، و كيف ان "حمية الشارتيين" [31] مفقودة في الحركة العمالية الانجليزية (1866، المجلد الثالث، صفحة 305)، و كيف ان الزعماء العماليين الانجليز يشكلون نموذجا وسطيا "بين البرجوازيين الراديكاليين و العمال" (تلميح الى هوليوك المجلد الرابع صفحة 209)، و كيف "ان العامل الانجليزي لن يتحرك" بسبب احتكار انجلترا و ما دام هذا الاحتكار قائما (المجلد الرابع، صفحة 433). ان تاكتيك النضال الاقتصادي بالارتباط مع السير العام (و مع النتيجة العامة) للحركة العمالية مدروس هنا من وجهة نظر واسعة شاملة ديالكتيكية على نحو رائع و ثورية حقا.

اما "البيان الشيوعي" فقد صاغ لتاكتيك النضال السياسي المبدا الاساسي التالي للماركسية: "انهم (اي الشيوعيين) يكافحون في سبيل مصالح الطبقة العاملة و اهدافها المباشرة و لكنهم يدافعون في الوقت نفسه عن مستقبل الحركة". و من اجل هذا ساند ماركس في 1848 حزب "الثورة الزراعية" بولونيا (اي الحزب الذي اثار انتفاضة كراكوفيا في 1846)[32]. و في 1848–

من منشورات : حركة انبثاق حزب العمال الشيوعيين -العراق